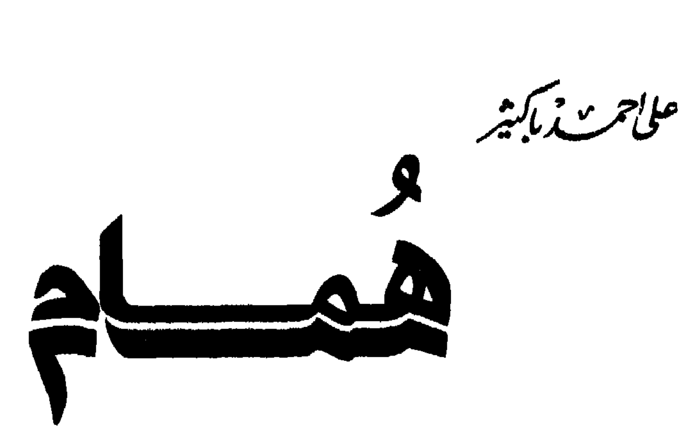
علي أحمد باكثير



همام في بلاد الأحقاف

مسرحية شعرية

89



همّــام

فى بلاد الأحقاف



همّـــام

فى بلاد الأحقاف

مسرحية شعرية

نظم

علي أحمد باكثير

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



مُقَدمَة المـؤلف

هذه المسرحية الشعرية التي استوحيت موضوعها من الحياة الاجتماعية بحضرموت ، وكتبتها وأنا بمدينة الطائف ثم نشرتها بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ، كانت أول تجربة لي في الكتابة للمسرح ، وكان لها صداها في الأوساط الحضرمية منذ ثلاثين عامًا !

وقد تقدم إليّ الأخ الأديب الفاضل الأستاذ علي محمد الصبان مقترحا إعادة طبعها ، ليتاح للأجيال الحضرمية الجديدة الاطلاع عليها ، باعتبارها وثيقة أدبية لمرحلة من مراحل التطور في حياة المجتمع الحضرمي ، فرافقته على ذلك ، شاكرًا له جميل اقتراحه ، راجيًا له التوفيق فيما يتوخاه من خدمة أمتنا العربية .

المؤلف

علي أحمد باكثير

القاهرة

٦ ربيع الثاني ١٣٨٥

٣ أغسطس ١٩٦٥

تصديـــــر

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ النقادة

حسن كامل الصيرفي

ناظم هذه الدرامة الشعرية أديب حضرمي يحمل بين جنبيه قلبا خفاقًا ينزع إلى الحرية .. ويصبو إلى رحابها الواسعة المترامية الأكناف ، ولهذه الرغبة نراه يطوي الأنجاد والوهاد ويركب متون البحار حتى يبلغ أرض الكنانة ، رسولا من مستقبل حضرموت إلى حاضر مصر ، لينقل إلى وطنه قبساً من نور بهيّ .

هو شعلة من الحياة التي تعرف حقها من الوجود الذي يأبى الركود ، ولهذا تجدّدت فيه الروح الناهضة ، التي أوحت إليه بهذه الدرامة .

هو شاب مخلص لوطنه كل الإخلاص ، فإذا كان ثائرا على حالة وطنه الراهنة ، فإنما هذه الثورة عين الإخلاص .. وما ثورته إلا الرغبة في الإصلاح.

تلمح في درامته صورا سريعة العرض تمثل ذلك القطر الشقيق رازحًا تحت أعباء ثقيلة من بدع متوارثة ، خلفتها عصور مظلمة ، وسياسة غريبة

عجيبة ، تتحكم في مصير شعب ضعيف خدرته بالعقائد والأوهام ، فسيرته في سبلها طائعا طاعة عمياء ، وليس أقدر من العقائد على أسر النفوس التي تضعها الفطرة في دائرة محدودة ، وتسهل تفكيرها ، وتقصر مدى نظرتها . فهناك فئة من الناس تتزعم الحياة الاجتماعية وتسيطر على الناس بتهويشها وخداعها ، وقد عرضت الدرامة صورا لها ساخرة منها هذه الأبيات :

وليٌّ الله ذو الجبـو ... ة والأرديـة الخضـر
وذو المسـواك في العمـة ... قـد أربـى علـى الشبر
ورب السـبحة الغـارق ... في التسـبيح والذكـر
بهـا يذكـر في النـاس ... ولا يذكـر في السـرِّ

يرجع ناظم هـذه الدرامـة جهـل شعبه إلى جهـل المـرأة ، فهـو يريدهـا متعلمة كشقيقاتها الشرقيات اللاتي عرفن مكانتهن من شعوبهن ، فنهضـن يطلبن حقوقهن ، فكان لتلك النهضة أثرها في شعوبهن .

وبطل درامته (الشاعر المصلح) الذي جعله المؤلف شابًا مجددا يسـخط على المسيطرين بخداعهم وأضاليلهم علـى عقـول الشـعب ، ويحـاول جهـد استطاعته بث أفكار جديدة في بيئته فـلا يلاقـي إلا عنتـا ، ولا يوصـف إلا بالكفر والإلحاد .

هذا البطل يجتهد أن يوصل أفكاره إلى الشـعب عـن طريـق المـرأة ، لأن المرأة كما يقول المؤلف على لسان سيدة من أشخاص درامته :

صاحبات الزمان نحنُ .... حياة الناس فيه والموت في أيدينا !

وهذا البطل موزّع القلب والفكر بين حبين قاسيين .. حب لوطنه ورغبة في تحريره من الأوهام وترقيته إلى مصاف البلاد الراقية ، وحب لفتاة تملك عليه شعاب قلبه .

وبين هذه الحياة المضطربة من صدمات عنيفة ، ومن جحود وإنكار ، ومن قلق وكفاح ، ومن رغبة وخفوق ، يرينا المؤلف صورًا من الحياة الاجتماعية في عاصمة الأحقاف ، كل ذلك في أسلوب طلي بسيط .

على أن المؤلف ــ بالرغم من هذه الثورة المضطرمة في نفسه ــ لم يزل يرفق ببيئته ، فهو يلطف من حدة أفكاره بألفاظ قريبة إلى روح الشعب ، فيها من إطفاء الغضبة ما يمنع سخط الساخطين وحنقهم . وله الحق في ذلك فهو يلجأ إلى مثل تلك الألفاظ لكي يستطيع بث آرائه وأفكاره .

وأرى أنه لو ختم درامته بغير ما خُتمت به لكان ذلك أشد وقعًا وأجلّ أثرًا ؛ فلقد كان يجدر به أن يختتمها بالحياة لا بالموت . وبعد فأتمنى له حين يعود إلى وطنه فيقوم بهذا الدور ، ويبث فيه الأفكار النافعة والآراء الصائبة ما تمتلئ به روحه ويزخر به إيمانه ، وأن يجعل الله خاتمة دوره الظفر والنصر وتحقيق الأماني .

القاهرة ٢٩ صفر ١٣٥٣ ــ ١٢ يونية ١٩٣٤

حسن كامل الصيرفي

الإهـــــــداء

إلى مصدر الوحي الأول !

إلى ملاكي الجميل الذي سبقني إلى عالم الخلود ، وكلما ذكرته أوحى إليّ !

وإلى الشعب الحضرمي الذي أحبه وأعيش من أجله ، أهدي :

هذه الأقصوصة

كذكرى خالدة للأول ،

وذكرى نافعة للثاني .

علي أحمد باكثير

تمهـــيد

مكان الرواية : مدينة (سيوون) عاصمة حضرموت الداخل

زمن الرواية : العصر الحاضر

أشخاص الرواية :

همـــــام — بطل الرواية

حُســـــن — حبيبة همام

محمـــــد — صديق همام ونصيره في المبدأ

علويـــــة — نصيرة وحبيبة محمد

زهـــــراء — أخت همام

خديجـــــة — أم حُسن

شـــــهاب — عم حُسن ووكيل أبيها

ولـــــي الله — خرافي دجال يتجر بدينه

ســـــالم — صديق محمد

الأمـــير أمجـــد — أمير البلاد

بكـــــر — غني يطلب يد حُسن

أحمد		
عقيل		
ابن عيسى		جماعة من الأدباء
عبد الله المغني		
عامر	—	بدوي رافق هماما في طريقه إلى الساحل
ناهية		
سعدى		أخوات عامر البدوي
لبنى		
نكرات مسرحية	—	رجال وشيوخ ونساء ووصائف ومغنيات

الفصـــل الأول

« غرفة متوسطة السعة على جوانبها خزائن مملـوءة بـالكتب، مفـروش جانب منها بسجاد رومي ثمين ، وعلى الجانب الثاني منضدة صغيرة عليهـا أدوات الكتابة يحيط بها خمسة كراسي بسيطة . ويظهر همـام في الجـانب المفروش من الغرفة متمددًا واهي الأركان ، يئن أنينًا خفيًا يشبه الغمغمة . تدخل عليه زهراء فتعرف ما به وتتجاهل فتسأل » :

المشهـــــد الأول

زهراء : أخي ما بـك اليـومَ ؟ إنـي أرا　　ك قليـلَ النشـاطِ كثـير الضجـرْ
أأنـت مريـضٌ وُقيـت الشُّـرو　　ر ، وبلغـك الله طـولَ العُمُـر

هُمـام : أي إنَّ بـي مرضـاً في الفـؤا　　د يـا زَهْـرُ يُنذِرنـي بـالخطر
ولا تجهلـين مـاذا بصـنـو　　كِ ممـا بـدا منـه أو مـا استتر
فماذا وراءكِ ؟ هل من جديـ　　ـد يخفّف من وجديَ المستعِر ؟

زهراء : أخي لا تَخفْ في الهوى أن تخيـ　　ـبَ؛ وهل يجهلُ الناسُ فضلَ القمر؟
ولا تجعلـنَّ ليـأسٍ إليـكَ　　سبيلا ففي اليـأس فـوتُ الوطـر
أييـأسُ متلـكَ وهـو الرَّحيـح　　في الكِفَـفِ الشّـائلاتِ الأُخَـر؟
فـأحرى بغـيرك أن يسـتريحَ　　إلى اليـأس . لا بـدَّ أن تنتصِـر
كـأنّي بحُسْـنٍ تُـزَفُّ إليـكَ　　عروسـاً تلـمُّ ذيـولَ الخفـر
تُحيـط بهـا الغانيـاتُ الحسـا　　نُ كالبـدرِ بين النجـوم الزهـرْ

كـأنيّ بأبياتِنـا قـد غـدتْ تُصفّـق بـالفرَح المزدهِـر
وأنتَ عـروسٌ تُحيِّي الوفـو دَ وتخطُر بين صفوف الزُّمَر

همام : أزهـراء لا عَدِمَتْـكِ الديـا رُ ، حديثُك يقشع عني الكدر
لأنـتِ العـزاء إذا مـا أتيـتِ وأنـتِ الهنـاء وأنـتِ الحَبَرْ(١)
فأيـن الكتابُ ؟ أما تقرئـينَ ؟

زهراء : بلى ! ذا الكتاب معي قـد حضر
كتـاب كريـمٌ خليـق بـه بـأن يكتبـوه بنـور البَصَـرْ
«بلوغ المرام» و«سُبُل السلا م» عليـه تُحجَّل منـه الغُـرَرْ
أحـاديثُ طـه وآيُ الكتـا ب تلألُؤ فيهـا خِـلالَ السَّطر
وأقوال مُجتهدي الصحب والأئمّـ ـةِ مـن كـل حِـبْرٍ أبـر
فيأخذُ منهـا الفتـى مـا صفـا ويـترك منهـا الفتـى مـا كـدَرْ
ومَنْ لاذَ مِـن بعدهـا بالهـوى فإن الجحـيمَ هـي المستقَـرْ

« يتبسم همام إعجابًا بهذه الروح الإصلاحية التي وفق لبذرها في نفس أخته . وتعرف هي أن في مثل هذا الحديث تسلية له وتهدئة لأفكاره المضطربة فتطّرد في حديثها » :

فـلا سَـلِمت كُتـب الجـامدينَ ولا فـاز قارئهـا بـالوطر
صَحـائفُ لا روحَ فيهـا ولا يَجـول بهـا ذكـرُ خير البَشر
يُصـوِّر فيهـا مُحـالُ الأمـو رِ ، ويُترك فيها مُهـمُّ الصُّور !
فتلـك الجواهـر أيـن الرّمـا لُ منها وأين خسيس الحجر ؟

(١) الحبر : السرور

« يستولى على همام الانبساط ويأمر أخته بالقراءة فتقرأ فصلاً من الكتاب يقول لها بعد الانتهاء »

صار فرضًا عليك أن تنشُرى هـــ ـــذا الهـدى فى جماعة النسـوان
فهُـدى الشّعبِ من هـدى أُمّهـــ ـات الشعب فى كل موطـن وزمـان
وبناتُ الأحقافِ أولى بأن يحذِقـــ ـــن شـتّى العلـوم والعرفـــان
وبـــأن يَـطْهــرنَ مـــن لُـــوَ ثِ الأوهـام ممـــا يخـلّ بالإيمـــان
فيريـــن الحياةَ مـــن غـير معـــنىً غيـر تـلـك الحيـاة وهـى معانى !

زهــراء : لِتَطـب يـا همـامُ نفسًـا فمـا تـر جـو سأسْـعى فيـــه بغـيرتوان
ولـقد سرّنى استـمـاعُ صديقا تى لقـولى وقْدرهُـن مـكـانـى

هُـمـام : بـارك اللّـه فى الصّغـار ففيهـنّ قَبـولٌ للحـــق إمّـــا دُعينـــا
إنّـمـا الشّرُّ فـى العـجـائز يجمُد نَّ جُمـود الحصى فلايهتـدينـا !

زهـراء : نحـن بـالأمس ثُلّةٌ ضمنـا مجلسُ عُـرس فـى بيـت جـار أبينـا
ولدينـا شريفةُ جمعَــتْ حُسـنًا ولطفًـا جمًّـا وعقـــلاً رصينـــا
سمِعَتْنى ـ ولستُ أعرفـهـا ـ أُلــ ـقى على الحاضرات درسًا مبينا
سُقْتُ من أخبار الشـهيراتِ فـى الإسـلام مـا ردّهـن لى يُصغينـا
شـاقهن الحديـث عـن سـيّداتٍ فقْن بعـضَ الرجـال علمـا ودينـا
ثـــم حرّضنهُـــن أن يتشـــبّهن بتلـــك الشـــموس أو يقتدينـــا
قـلتُ لـيس الرجالُ أولى بكســ ـــب العلـم منـا فإننا مُسـتوونا
ومـن العلـم مـــا يُعرِّفنـا الديـن ومنـه مـــا ســدّ فإننـا مُسـتوونا
وأهـــم الأمـــور تربيـــةُ الأو لاد كـى ينشـأوا مـن العاملينـا
صاحباتُ الزمان نحن ! حياة النــ ـناس فيـه والموتُ فـى أيدينـا !
إن نـشأ فـالـورى بـنـا سُعـداء وشـقاءٌ حيـاتـهـم إن شِينـــا

فعلينــــا لربنــــا واجبـــــاتٌ ليس نبرا مـــن إثمهـــا مـــا بقينـــا
كيـف نستطيعُ بالجهالـةِ يومـا أن نـؤدي أمانـــة الله فينـــا ؟
صِحْنَ في أسماع الرجال : أليـ ـس العلم فرضًا على النساء مبينا؟
فيم غادرتُم البنات على جهل وقمتم تعلّمون البنينا ؟
هــل أقمتــم مدارسًــا للواتــي إذ أقمتــم مدارسًــا للذينـــا ؟

* * *

فتدنــت تلـك الشَّـريفة مـني وحَبَتْـني مـن الثنـاء فنونـا
ثـم قـالت : عمّـن تلقَيـتِ هـذا ؟ قلـت عـن صِنْـويَّ الـذي تعرفينـا
عن همامٍ . قالت همام أضحى بحُسْنِ بـين الـورى مفتونـا ؟
والـذي يذكـرون عنـه ابتداعًـا بئس هـذا الـورى ومـا يَفترونـا !
إنني قد أنسـتُ مـن قولـك السّا لـفِ روحًـا فيّاضـة ويقينـا
فتسـاءلتُ مَـن يكـونُ الـذي لقّـ ـنَ هـذي الهُـدى تلقينـا ؟
فذكَـرْتِ امـرءًا جُعلـتُ فِـدا هُ دونَ مـا عابَـهُ بـه الجاهلونـا !
ليتنـي أسـتطيع أن أتلقّـى عنـ ـه شيئًا ! أنّـي لِـذا أن يكونـا
قُلـت : نفسـي فـداكِ يـا ابنـة طـه أنتـم آلُ بيتـه الأكرمونـا
ليس بدعًـا أن تنصـروا سنـ ـةَ الهـادي بنصرهـا قمِنونـا
إنمـا البـدعُ أن يكـون بنـو المخـ ـتار عـن هديـه مـن الناكبينـا !
غير أن مـا رأيـتُ مثلـكِ في نسـ ـوة «سَيُّونَ» تعشقُ المصلحينـا
إن سرًّا في الأمـر يَحْسـنُ لـو أد ريـه ، قـالت يَسـرُّني أن يَبينـا
نحن من بيت سادةٍ يكرهُ الدجـ ـل ويأبـى من الأمـور الدُّونا

جدُّنـــا الأكـــبر الشريف « عقيـــل »
ســـنَّ نهـــج الهــــدى لنا ما حيينــــا
عنـــدنا من آثـــاره « سيفهُ المســـلُو
ل » يَفْـــري أوهامهــــم والظنونـــا

* * *

بلعـــى عـــني الســلام همامًـــا ورجـــائي إيـــاه في الناجحينــــا
وغـدًا نلتقي ويحرسـك الرحمـــ ـــنُ قلت الرحمن يبقيـك فينـا
همـام : بـارك الله فيـك ! هـذى فتـاة من سَليل الأفـاضل الأطهرينـا
جدُّهـا كـان في الحجـاز منـارًا للمعـــالي يَؤمُّـــه الطالبونـــا
ذبَّ عـــن ســـنّةِ النـــبي ولاقـــى مـــن بـــني قومـــه أذىً وفنونـــا
رَبِّ آمنـتُ بالوزراتـــةِ ! أنـــتَ الله أرســـلتها لنـــا قانونـــا
هـــذه روح جدّهـــا ، ربِّ وفّقــــ ـــها وآزر بســـعيها النّاهضينـــا
« يلتفت إلى زهراء مسائلا » :
ألديهـــا روجٌ ؟
زهراء : قضـى زوجُهـا النحـــ ـــب صغيرًا لم يبلـغ العشـرينا !
وقضـــى قبـــل روجهـــا أبواهـــا فهـي ثكلـى تَعيش عيشًـا حزينـا
خَبرتني عنهـا سـعيدة إد كـانت قـد استُخْدِمتْ لديهـم سـنينا
همـام : مَـــن يليهـــا إذن ؟
زهراء : شـــقيق أبيـــه عالهـا رغـــم كونـــه مســـكينا
همـام : ذكّرينـا لكـي نواسـيَه القَيْـــ ـــنة بعـــد الأخـــرى .
زهراء أصـبت قمـــينا

همـــام : لم تَجدْ بعد زوجهـا خاطبًا ؟

زهراء : لا .

همـــام : أو ليست حُسْنا كمـا تذكرينا ؟

زهراء : بـل هـي الحُسن كلّـه ــ عَلِـمَ الله ــ متاع الرائـين والسامعينا !

همـــام : غير أن الشَّبابَ في هـذه الأنحـــاء بالحسـن ليـس يَحْتفلونـا

إنمـا ينظـرون للمـالِ فالمـال هـو الزوجـةُ الـتي يخطبونـا

ويَـرَوْنَ الكمـالَ في ذات أمٍ لا يُـرَى زوجُ بنتهـا مغبونـا

تتوخى رِضـاهُ في كـل حيـن فتريـه مـن الطعـام فنونـا

فكأن لم يكن لديهم من الحبِّ سوى مـا يسـدُّ منهـم بطونـا

المشهـد الثانـي

« في القاعة الكبرى للمدرسة حيث تقام الحفلة السنوية وقد حضر إليها الناس من كل الطبقات ليشاهدوا التلامذة ويسمعوا خطبهم ومحاوراتهم .

التلاميذ في وسط القاعة متميزين عن الناس والناس محيطون بهم . همام يقوم بعد فراغ التلاميذ ويعتلي منصة الخطابة » .

يـا بـني مدرسـتي إنـى لكـم نـاصحٌ يصفيكـم النُصحَ أمـين

لَبنـاتُ الشّـعب أنتـم فليكـن كلُّهـا مـن ذلـك الصّلب المتـين

إنَّ برنامـجَ تدريسِكُـمْ ليس برنامـج قـومٍ مرتقين

تُرهِقون النشءَ بالحفظ فمِن حفظ تقريرٍ إلى حفظِ متون
ليس في ذاكمْ لهم من صالحٍ إنه يقتل فهمَ الناشئين
فدعوا الحشو وربُّوا فيهم ملكات الحذق في كل الفنون
استقوا التوحيدَ من ينبوعه وانبذوا كتب الصفات الأربعين
لا تريد النفس إلا حيرةً لا كأسلوب الكتاب المستبين
لم تؤلف لكم هاتيك ، بل ألفوها لِجِجَاج الملحدين
واقصدوا في الفقه لا يأخذكم ليس في الفقه غذاء الناهضين !!

« أحد الشيوخ يقوم ويحاول تسكيت همام ويصيح » :

يا عبادَ اللّهِ ! هذا مارقٌ يندب الناس إلى دينٍ جديد
أسكتوه أسكتوه ! إنه يا عباد الله شيطان مريد

شيخ آخر : هذا وهابيٌّ !

ثالث : هذا معتزليٌّ !

رابع : سدُّوا فاه

خامس : لا تدعوه يغوي الناسَ !

سادس : هذا ما كنا نخشاه !

« همام رافعاً صوته في شيء من الغضب » :

أنا لا أصغي لتسكيت امرئ أنا لا أخشى صياح الصائحين
خطبتي لا بدّ من إتمامها

شيخ متنور : أتمم الخطبة إنا سامعون

لا تُبل ؛ من رام أن يقطعها فليقم إن شاء في المنصرفين

همام : أنا لم أدْعُ إلى غير الهُدَى وإلى غير نهُوض المسلمين
أنقِمْتم دعوة الناس إلى سُنّة المختار خير المرسلين

« ملتفتا إلى الشباب »

اسمعوني يا شبابَ الحي ، لا يُقصكم عني مقالُ الجامدين !
.. .. ليس في الفقه غذاء الناهضين !
اقرأ وافقَه حديثَ المصطفى تعبروا الشكَّ إلى برد اليقين
لا تهابوا اليومَ أن تجتهدوا إن سرَّ العلم للمجتهدين !!
وكتاب اللهِ باقٍ خالدٌ تنجلى آياته في كلِّ حِين
ادرسوه درس أحياء ولا تدرسوه دَرْس قوم ميّتين
ادرسوه وفْقَ نهج خَطّه (مصلِح الإسلام[1]) ذو الفضل المبين
إنه يشْعِل في أنفسكم جذوةَ الدين وعِزّ المؤمنين
إنه يبعث في أرواحكم قوةً هائلةً لا تستكين
فَتَح الدنيا بها أسلافنا من ربَى الغرب إلى السور المكين
وأضعناها فهُنّا بعدها وغدونا مُضْغةً للآكلين
ليست الأخلاق لِينًا في الخُطى وخضوعًا هو للنّفسِ مهين
إنما الأخلاق أن لا تُبطِنوا غير ما للنّاسِ أنتم تظهرون
إنما الأخلاق أن لا تتركوا نصرةَ الحقِّ للَوم اللائمين
رفعَ الإسلام من أنفسِكم فارفعوها عن دعاء المقْبَرين
لا تذلُّوا لسِوَى الله ، ولا تخضعوا إلا لربّ العالمين

(١) هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

« أحد الحاضرين لصاحبه » :

لِلّـــهِ مــــا أفصَحــــه !

الآخر : والحقُّـ وا للهِ ـ مَعَــه !

الأول : لكـــن هــــؤلاء لا يبغوننــــا أن نســـمَعه

الثاني : أقوالـــه مؤلمــــةٌ لهـــؤلاء موجعَـــه

الأول : لأنهـــا تقطـــعَ مـــا كـــان لهـــم مـــن منفعـــه

همام : حَكموا الأنصاف فيما بينكم لا يكـن قـومٌ لقـوم حـاقرين

فالمســاواة علــى أعْدَلِهــا ميزة الإسلام عنـد الباحثين !

وأخـو الحـق إذا لم يُعْطَـهُ أخـذ الحـق انتهابًـا بـاليمين

* * *

المشهـد الثالـث

« بهو كبير ـ في دار أحد أدباء البلد ـ مفروش بالبسط الجميلة من المخمل الثمين ، منقوشة جدرانه برسوم فنية جميلة للأزهار المختلفة تحملها الأغصان الخضر . جماعة من الأدباء في المجلس بينهم كثير من أتباعهم المتأدبين يشربون ويتحدثون. أمامهم عدة شاي مصقولة يخطف بريقها الأبصار يتولاها أحدهم . يدخل همام مسلمًا » .

همام : عمـوا مسـاءً يـا أصدقـائي

الحاضرون : مسِّـيت بالخـير والهنـاءِ

أهـــلاً وسهـــلاً

أحمد : (أحد الأدباء) هذا ابن عيسى يـــذم فينـــا أبـــا العـــلاءِ

همام : في الديـــن أو في البيـــان ؟

أحمد : بـــل في كـــل الشـؤون علـــى الســـواء

همام : لا يا ابن عيسى جزت المدى لا بـــدَّ مـــن العـــدل في القضـــاء

« ملتفتًا إلى أحمد »

وأنـــتَ مـــاذا تقـــولُ فيـــه ؟

أحمد : إنـــــي أراهُ في الأتقيـــــاء

همام : كِلاكُمـــا قـــد غـــلا ، فهـــذا ذمَّ ، وذا لَـــجَّ في في الثنـــاء

بـــل هـــو في شـــعرهِ إمـــامٌ جَـــدَّد نهجًـــا للشـــعراء

لكنّـــه كـــان في ارتيـــابٍ مـــن ديـــن مـــولاه وامـــتِراء

فقـــال مـــا قـــال غـــيرَ خـــاشٍ ولا مُـــــداجٍ ولا مُـــــراء

ومُمكـــنٌ أنَّـــه حُظِـــي في أخـــرى لياليـــه بـــاهتداء

فرُبَّ شـــكٍ أفْضـــى بِمـــولا ه ـ بعـد ما حـــار ـ للجـــلاء

« تدار كؤوس الشاي ويأخذ همام كأسًا »

شـــرابُ الشـــاي خـــيرٌ لي مـــن الدنيـــا ومـــا فيهـــا !

إذا مـــا أقبلـــت كـــأسٌ كخـــــزدٍ في تهاديهـــــا

قـــولى الهـــم مـــن نفســـي ودانـــــت لي أمانيهـــــا !

عرفتُـــم مَـــنْ هـــو القـــائلُ هـــذا الشِّـــعرَ في الشـــاي ؟

يـــرى في الشـــاي دنيـــاه فمـــا صِحّـــةُ ذا الـــراي ؟

عقيل (أحد الأدباء) :

لا تعجبنّ همـــامُ تلك حقيقـــةٌ كالشمـــس فيها الشاربـون سواءُ

ما قيمة الدنيا وما فيها إذا   ما لم يكن شايٌ ولا ندماء ؟

همام : إنَّ في الشاي عزاءً   لصريع الهم والغمْ

لكئيب أو حزين   أو عميدٍ أو متيّم

حاز لُطفَ الخمر إلا   أنه غير محرّم ؟

من صفاء اللون في العين   وحُسنِ الذوق في الفم

هو مَسلاة أديبٍ   فيه من بلواه مَعْصَم

ورَسولٌ للتآخي   يجمع الناس وينظِم

غير أنّ القصدَ في الأشيا   ء منجاةٌ ومَغْنم

فغلَوْنا فيه حتى   صار فينا يتحكّم

وغدا وهو على القو   ت الضروري مُقَدّم !

وشربناه بلا وزنٍ   وتقدير مُنظَّم

فلكَمْ يَسْلبنا الما   لَ وكم يُسقِمنا كم

ولكَمْ أخى على بيتٍ   كريم فتهدّم

ولكم عائلةٍ جرّ   عها صابًا وعلقم

ولقد زاد بلاءً   أنه في قُطرنا عَمْ

فهو في القصر، وفي البيـ   ـت، وفي الكوخ المرمرم !!

عقيل - ملتفتًا إلى «عبد الله» المغني :

يا بلبل الأفراح والسُّرور   اصدَحْ بمُوْسيقاك في الحضور

غن لنا شعر (أبي كثير)   في الشاي وانشُر ميت القبور !

(يتهيأ المغني ثم يرفع عقيرته يتغنى بصوته الجميل ولحنه الطروب) :

يا صاحب القلب الشقي بقومه   إرفق بهذا القلب لا يتحطمِ !

اخــدم بلادك ما استطعـت وكل إلى

مــــولاك ما لم تستطعـــه وسلّـــمِ

ومن الجفـا أن لا تحـيي مثلمـــا   حيّاك وجه العيـد مبتســمَ الفمِ

ذَرْ بعضَ همــــك واقض بعض حقوقــه

لا بـــــدَّ للمحـــــزون من مُتَبسَّـــم !

واقــذف شياطينَ الهمــــوم بأكــؤس

تنفــضُّ من (بُــرَّاد) شاي مُعلَــمِ[1]

مخضــرةٍ جنباتــه فــاعجب لــه   من جنــة خضــراء فـوق جهنـمِ !

شاي يفـوز من احتسـاه بلثمــةٍ   من كل خدٍ في الحسان ومبسمِ !

من (باسلامةَ) مثــل ذوب التــبر أوْ

من (مشعبيّ) مثل لـــون العنـــدمِ[2]

مثـل الطـلا في لونهـا وصفائهـا   ونقيضهـا في رجسـها والمــأثمِ

لا نقـصَ عنهـا فيـه إلا أنـه   حُلـوُ المـذاق وأنـه لم يحـرُمِ

فاشربه متخذاً نديمَـك كـل ذي   أدبٍ متـى نادمتَـه لا تنـــدمِ

همام : أحسنت يا بلبل الوادي !

آخر : أجـــدت

آخر : لقد رَوَّحــ ـــتَ بـالصّوت أكبـادًا وأرواحـا

همام : وقـد تفـرد بالإحسـان شــاعرُنا   إذ ضمَّن الشعر توصيفًا وإصلاحا

وأنصِتوا لشاعـــر   من شعرائكـم سَــرِيْ

« الحامديّ » يصف الشاي بوصف عبقري !

---

(١) البراد يطلق هناك على إبريق الشاي .

(٢) صنفان من الشاي اشتهرا في حضرموت بهذين الاسمين .

روّق لها مـاء الغمـام وهاتهـا لي والحبـاب يجـول في جنباتهـا
صهباء ما عبثت بها يدُ عاصـر ما عاشـرَتْ إلا أكـفَّ سُقاتِهـا
من جيّـد الشـاي استحال عصـيرها
فغـدت تحاكي الشهـب في جاماتهـا
قـد راق منظرهـا ورق زجاجـها
فلِعلـةٍ لم يُدهقـوا كاساتهـا
لولا انتصـافُ الكاس خيّـل أنهـا
في كـف ساقيهـا تقـوم بذاتها !
وإذا الهموم على النديـم تكاثفـت
وبـدت أشعتها جلت ظلماتهـا !

حقًّـا لدينـا نهضـةٌ أدبيّـةٌ لا تُنكـرُ
عَمَـرت نوادينـا ، بهـا يستبشـر المستبشـر
نشـطَ البيـانُ فشـاعرٌ يشـدو وآخـر ينـثر
هـذا لعمـري مُـؤذِنٌ بنهوضنـا ومبشِّـر

(يتنهد)

لكـنَّ .. مَشْـيُ العِلـم في أحيائنـا متعـثِّر !
جَمَد (الفقيـه) على متو ن بالشُّـروحِ تُفسَّـرُ
وكأنهـا التـنزيل أو هـي بالقداسـة أجـدرُ !!
ويرتّـل (النَّحـوي) كُتـبَ خلافِـهِ ويقـرِّرُ
يمضـي علَيـه عمـره لا يسـتطيع يُعَـبِّرُ !
أمـا (الحديـث فـإنهم يتلونـه كـي يؤجـروا
ووظيفة (الذكر الحكيـم) علـى القبـور يكـرّرُ !
أمّا سوى هـذي العلـو م فأمـره مُستَحقَـرُ

كيف النهوض لأمة لا علمَ فيها يُذكَر ؟
في الدين والدنيا جميـ ـعًا سيرُها مُتَقهقِر !

أحد المتأدبين (**معترضًا**) :

إنَّا علينا السعي للـ ـأخرَى ؛ وللدنيا سوانا !
أو ليستِ الدنيا بسِجْـ ـنِ المؤمنين كما أتانا ؟

همام

الله يأمر أن نكو نَ أجلَّ أهل الأرض شانا !
وأشدهم بأسًا وأر فعهم وأعلاهم مكانا
كيما نقيم العدل في الـ ـدّنيا ونملأها أمانا
فإذا اتّبعنا ما يقولُ فسوف يُدخِلنا الجنانا
فنرى بها الدنيا كسجـ ـنٍ لا نرى فيها رضانا
والدين بالدنيا فليس يقـ ـومُ ما ضعُفَت قُوانا
وطبيعةُ الإسلام لا ترضى المذلةَ والهوانا
هذا المرادُ ، وحسبُنا قرآنُ مولانا بيانا

« يلتفت إلى جماعة من الشبان العاطلين من أبناء السادة والمشايخ كانوا قد حضروا المجلس » :

يا بني الأشراف قوموا وانهضوا
فكفى ما كان منكم من كَسَلْ
اعملوا لا تتوانَوْا واعلموا أنّ هذا دينَنا دينُ عمل
بينما الناسُ على أعمالهم بين تشمير وجدّ مكتمِل
تتهادَوْن كأسراب القطا وتمشّوْن كقُطعان الهمَل !؟
أفلا يغشاكم فيه حيًا ؟ أو لا يلحقكم فيه خجَل ؟

أحدهم : إنهم أشياخنا ينهَوْننا عن تعاطينا لأعمال السفل
فعلينا العلم أن نخدمه وسيُغْنى من على اللّه اتكل !

همام : إن هذا الرأي منهم خطل وأراكم لا تقرون الخطل
فمتى عُدَّ من العار على سيّدٍ مسعاه في خير السُّبُل ؟
يجلب الخير إلى أهليه مِنْ والدٍ أعمَى وأمٍ تبتهل
وأخيَّاتٍ على أوجهها كمُدة اليأس ولألاءُ الأمل !
تتمنى ما لدى جاراتها من أثاث وحُليّ وحُلل
أو لم يكتسب المختار في عهده والآل والصحب الأول؟
طالب العلم ولا كسبَ له بسؤال الناس لا بُدَّ يذِل
ليس من لم يكتسب متكلا إنما الكاسب عين المتّكل !

* * *

أبني الرسول تعلموا وتدبروا سُنن الحياه
لا تجمدوا ! إن الجمود سبيل من كره النجاه

* * *

أسلافكم وجدودكم شهدوا عصورًا غير هذا
فلو انهم شهدوه ما انتبذوا عن الدنيا انتباذا

* * *

لا تجعلوا أعمالهم حججًا ، ولكن محِّصوها
فخذوا محاسنها وخلّوا ما ترون الريْبَ فيها

* * *

لا بأس من تمجيد ذكـ ـــراهم ففي التمجيد ذكرى !
كم حاضرٍ تحت الرمو س أفادَهُ ماضيه نشرا

* * *

لكن بحيث يُهيب نحـ ـو المجد منطلقَ القيودِ
العصر غير العصر والـ ـأشبال أبناءُ الأسودِ !

* * *

كانوا هداة الناس بل كانوا ملائكة التُّقى
قد أكبروا شأنَ الفنا ء وأصغروا شأن البقا

* * *

لما سرت رُوحُ التصوّ فِ والتبتّل فيهمُ
مقتوا الحياة كأنّها أشياءُ لا تَعنيهمُ

* * *

فالموتُ هَمُّهمو ، وغا يةُ همهم دار المآبْ
فَعُنُوا لهذا بالقبو ر وما إليها من قِباب

* * *

وتعشقوا الموتى فأحـ ـيَوْا لادِّكارهم المواسمْ
يجِدُون عندهم العزا عن عيش سوءٍ غير دائم

* * *

فقفوا أمامهمُ خشو عًا في سكون واحترام
فقد انقضت أدوارُهم فعليهمُ أزكى السلام

* * *

شَهدوا زمانًا فيه قد   غلب الجمودُ على ذويه
أنلومهم ظلمًا لأنْ   كانوا فريقًا من بنيه ؟!

* * *

إنا لنظلمهم إذن   وهم التّقاة الصالحون
راموا رضى مولاهمُ   في كل شيء يعملون

* * *

لكن عليكم أن تكو   نوا للحقيقة طالبينا
لا تقبلوا ما جاءكم   عن هؤلاء مُسلّمينا

* * *

وتدافعوا عنه على   جهلٍ بحق أو بباطل
ليسوا بمعصومين عن   خطأٍ وإن كانوا أفاضل

* * *

اليوم قامت نهضةٌ   في عالم الإسلام حيَّهْ
وسرت إلى الدين الحنيـ   ـف حياته الأولى القويّهْ

* * *

شبّتْ بها الحربُ الضّرُو   س على الطوارئ والبدعْ
مما به الأهواء قِد   مًا ألصقته والتّشيّعْ

* * *

فلقد هوَتْ بالمسلمين إلـ   ـى الحضيض الأوهدِ
وقضت على أوطانِهم   للمستبدِّ المعتدي

* * *

لا بـــدّ مـــن هـــذا الرجـــو ع إلى الكتـــاب الخـــالد
وإلى هُـــدَى المختـــار والـــ ـسَّلف الحكيـــم الرّاشـــد

* * *

فعليكمـــوا أن تدخلـــوا هـــذا الغمـــار ولا تكعُّـــوا
أنتـــم بنـــو الهـــادي فمـــا في سبقكـــم للفضـــل بـــدْعُ

* * *

كونـــوا مِثـــال النُّبـــل كـــو نـــوا قـــادةً للمســـلمين
والديـــن كونـــوا في طليـــ ـعة ناصريـــه المصلحـــين

* * *

واقضـــوا علـــى الأوهـــام لا تَجِـــدَنَّ بينكـــم نصـــيرا
ومـــتى دعـــوتم للصـــلاح هديتـــم بشـــرًا كثـــيرا !

* * *

وتعلّمـــوا أن الـــورى في شِـــرعة الهـــادي ســـواءْ
ما الفضـــل إلا بالتّقـــى والكـــل من طـــين ومـــاءْ

* * *

أمـــا التّقـــاليد القديمـــه فاتركوهـــا أجمعـــا
أو لم تكُـــنْ للفتنـــةِ الـــ ـعمياء فيكـــم مهيعـــا ؟

* * *

عـــادْ جرت قِدْمـــا يطـــول بـــ ـــها القـــويُّ علـــى الضعيـــفْ
ألعصـــر يمقتهـــا ، وليس يقـــ ـــرّها الديـــن الحَنيـــفْ !

(يرى ثلة منهم يتهامسون)

فيـــمَ تهامَســـون ؟ وممّـــ تعجبـــون ؟

(ينظر بعضهم إلى بعض ويجيب أحدهم) :

القـــــوم لِلَّـــــــذي قـد قلـتَ مُنكـرون !

آخر : يقولـون ترشَّـــدت !

همام : وهـل بالرُّشْـــدِ مِـــنْ لـــوم ؟

فهـــذا (قُطُـــب الإرشـــا د) ربّ الفضـــل في القـــوم !

أحدهم : نحـن نعنى فئـة النصـب الـتي أبغضتنـا آل بيـت المصطفـى !

جاهرتنـا بـالعِدا في (جـــاوةٍ) وبوادي (حضرموت) في الجفـا

همام : سُوّتم ظنّـا ، ومـا زلتـم لمـن جـاءكم بـالنصح تبـدون الجفـا

إنـي مـن أعظـم النـاس لِمـا كان من شَغْبٍ (بجاوا) أسـفا

وأراهـــا ســـببة تجعلنـــا في عيـون النـاس بيـن السُّـخفا

غـير أني لا أرى أعظـم أســـ ــبابها إلا جمــودَ الشُّــرفا !

وقفوا في وجـه سيْلٍ لـو تولَّـ ــوه بالحُسنى لأروى وشـفى

فطغـت أمواجـه ، حتـى لقـد جرف الأسـداد فيمـا جرفـا !!

حكَّمـوا الأهـواءَ ثـم انطلقـوا بالأهـاجي يمـلأون الصحفـــا

ونَسُـوا أن المبـادي لا تــرى نُجْحها مـا لم تـؤاخ الشَّـرفا

* * *

أنــا لا أعــرف (إرشــاديَّةً) لاَ ولاَ (رابطـــةً) أو جنفـــا

إنمــا أعــرف (إســـلاميةً) تجمع النـاس على عهـد الصفـا

تجعـل النـاسَ سـواءً لا تـرى فيهـم ربًّـــا ولا مســـتضعفا

أنـــا لا أعـــرف إلا أننـــا قد غوينـا مـذ هجرنـا المصحفـا

أنــــا لا أعــــرف إلا أننــا نشــر الجهــلُ علينا السُّـدَفا

فغدا العُــــرفُ لدينا مُنكــــرًا   وغــــدا المنكرُ فينـــا عُرُفـــا

* * *

أنـــا لا أعــــرف إلاَّ دعـــوةً   (لجمـال الديـن) شـقّت غُلفـا
تنـدب النـاس إلى ديـن الهـدى   مثلمـا كـان بعهـد المصطفـى
لا خرافـــاتٌ وأوهــــامٌ ، ولا   بــدَعٌ تحســب فيــه زلفــا
تفتـــح العلــم علـى أبوابــه   في وجـوه المســلمين الحنفــا
ليكونـوا سـادة الدنيـا ــ كمـا   وعــد الله ــ عليهــا خُلفــا
ولقــــد أيَّدهــــا تلميــــذه   « عبـده » فيمـا دعــا أو ألّفــا
بــثّ روح الحـــق في أتباعـــه   فغــدوا فينــا غيوثًــا وكُفـــا
فلنبــثّ الـــروح فينــا هــذه   في إخـــاءٍ ووفـــاق ووفـــا
لنحوز الفــوز في الأخرى وفي   هــذه الدنيا المقــام الأشرفـــا

* * *

يا بـــني الأحقـــاف توبـــوا للهـــــدى
واتبعوا (الذكـــر) ولـــوذوا (بالسـنن)
وانشـــروا العرفـــان في قطركـــــم
واستغلـــوه وأحيـــوا كل فـــــنّ
وتناســـــوا ما مضـــى وامتزجـــوا
وارحضـــوا الأحقـــاد عنكم والإحـــن

* * *

بينكم جنـــس ، وديـــــن جامـــع
ولســـان وعهـــود ووطـــــــن
(ســـتار)

الفصـــــل الثانـــــي

المشهـــــد الأول

« همام في مكتبه الذي يستقبل أصدقاءه فيه يتصفح أوراقا له ورسائل . يستأذن عليـه « محمـد » .. يتعانقـان ثـم يجلسـان على كرسيين متقابلين تفصل بينهما المنضدة .

همام : أخـــي ! أيـــن تغيّبـــت ؟ فعهـــدي بـــك مـــن شـــهر
جـــرت في الربـــع أحـــداثٌ وظـــني بـــك لم تـــدرِ

محمد : ذهبـــتُ إلى زيـــارة شيـــ ـــخ آهـــلِ الكشـــف والسـرّ
(وهنا يبتسم ابتسام السخرية)
عمـــود الديـــن في « قَيْـــدو نَ » شـــيخ الـــبر والبحـــر
ألم أخـــبرك إذ يّممـــتُ مـــا يّممـــتُ مـــن أمـــري ؟

همام : (متنفسا الصعداء)
بلـــى إنـــي ذكـــرتُ الآ نَ ! فـــاقبل يـــا أخـــي عـــذري
بلانـــي الله بـــالحبّ ! فعقلـــي ذاهـــل دهـــري
نهـــاري كلـــه فِكـــر ! وليلـــي مدمـــع يجـــري !
ولا ينفعـــني علمـــي ولا رأيـــي ولا فكـــري
ولا المشـــهور مـــن فضلـــي ولا المتِّـــع مـــن شـــعري !

محمد : أخـــي ! لا تنـــس أن تصـــبر فـــالنّجح مـــع الصّـــبر
وخـــلّ اليـــأس ولتقـــرأ معـــي : إن مـــع العســـر

لمــا تـــألمُ في جســـمي ومـــا تغتـــمُ في صـــدري !
ومـــا يحملـــه ظهـــرك محمـــول علـــى ظهـــري !
ألا تخـــبرني مـــاذا جـــرى طِيلـــة ذا الشـــهر ؟

همام : جـرى .. مـاذا جـرى ؟ لا شيء غـير الضيـم والقهـر !
« وليُّ الله » ذو الجُبـــو ة والأرديـــة الخُضـــر !
وذو المسواك في العِمَّة قـــ ـــد أربـى علـى الشـبر !
وربُّ السـبْحة الغـــار قُ في التسـبيح والذكـــر !
بهـــا يُذكـــرُ في النـــاس ولا يذكـــرُ في الســـرّ
ومـــن يمشـــي بعُكـــازَين مـــن أتباعـــه الكُـــثر !
يطـــاطي رأســـه لـــلأر ض كالبـــاحث عـــن ســـرّ !
تدنّـى مـن (شـهاب) سـا عيًّـــا بـــالختل والمكـــر
أتـــاه خاطبًـــا (حُســـنًا) لراشـــي دينـــه (بكـــر)
و لم يـــألُ اجتهـــادًا عنـــ ـــده في الغض من قـدري
رمـــاني بصنـــوف الزيـــغ والبدعـــة والكفـــر
ولا تجهـــل طـــرقَ القـــو م في الحيلـــة والخـــتر !

محمد : خفف عليك ! فإن أمرك هين والرأي يبصره ذوو الأحلام
أفقِدْ عـدوَّك روحـه بسـلاحه وافلل شبا الصمصام بالصمصام

همام (في شيء من العتب والموجدة)
أتريدنا نرشو الخبيث كما رشا بكرًا ؟ وأين مقامه ومقامي ؟
إن لم نكف عن الآثام نفوسنا فعـلام ننقـم ضلّةَ الأقـوام

محمد : لا يُخْطِ ظنك ما أردت ، فلم أرِدْ
إنّا نلوذ بسُنّة وملام
إنّا لنربأ أن نقارف خلة تزري بمبدئنا القويم السامي !
لكن أردت سقوط هذا المرتشي
بطريقة تكسوه ثوبَ الذام
ونرى مخازيه الأنام ليقلِعوا عن هذه الأوثان والأصنام !
من كل قاسي القلب ينصب دينه لقضاء لذّات وجمع حطام
سأطِيل محنته ، وأبطل سحره قسرًا وأُلصِقُ أنفه برغام
وسيُبْصِرنَّ ذوو العقيدة فيه في
برديْه أيَّ مدجّل أثّام !

همام : (وهو يبتسم ابتسامة الإعجاب والرضى)
بوركت يا خير الصحاب ! وبوركتْ
روح الشجاعة فيك والإقدام
لِتَنم جفوني ما سَهِرْتَ فإن أنم
وسهرتَ أنت فلستُ في النوام
محمد هاتِ عن قَيْدو نَ ماذا كان من أمر ؟
وما شاهدتَ في الموسم من عُرف ومن نُكْر ؟
وهل وقّفْتَ في الإنكا ر والتذكير والزجر ؟

محمد تَوافَى الناس أفواجًا إلى قيدونَ كالذّرّ
فمن ساعية تمشي ومن راكبةِ الحُمر
هناك الساحة الكبرى تحاكي ساحة الحشر
بها ما شئتَ من لهو ومن لغو ومن هَذْرِ

وقــد غُصَّــتْ بأشـــتات   مــن الآســـاد والعُفـــر !
تبـــارت ثـــمَّ في الحِلْـــــ   ـــية والأبـــراد والخُمـــر
وقــد يقتُلـــن بـــالمِعصم أ   و بـــالنظر الســـحري !!
مـــن الظُّهـــر إلى العصـــر   إلى مُنْبَلَـــج الفجـــر !
هنـــاك الخســـر في الديـــن   وحسب النـاس مـنَ خسـر
ولا يربَـــح في تلـــك الـــ   ـــزيارات ســـوى النَّجْـــر
وأمـــا ســـادن القبـــة   فهـــو الرابـــح المـــثري !
تُســـاق لـــداره الأكيـــا   س مـــن حَـــبٍّ ومِـــن تمـــر
و(للصنـــدوق) مـــا يبـــا   ع مـــن ورْقٍ ومـــن تـــبر !

* * *

ولمـــا حضـــر الوقـــت   تداعَـــوْا كضحـــى النَّفـــر
وأمُّـــوا نحـــو قـــبر الشيـــ   ـــخ بـــالطبل وبـــالزَّمر
يصيحـــــون : وليَّ الله   جئنـــــاك إلى القَـــبر !
أتينـــاك لكـــي تحمِـــلَ   عنّـــا ثِقـــلَ الـــوزْرِ
وكـــي تُسْـــبلَ يـــا قطـــبُ   علينـــا ضـــافيَ السِـــتر
وفي الأنفـــس حاجـــاتٌ   بهـــا يـــا سـيّدى تـــدري !
أتينـــاك لكـــي تُقضَـــى   ونحظَـــى منـــك بالسَّـــتر

* * *

ولمـــا وصلـــوا القبـــةَ   داروا دَوْرة الحُمـــــــــر
وأهـــوَتْ راحُ ذاك الجمـــ   ـــعِ في التابـــوت بالنقـــر

فـــلا تســـمع إلا مـــا .... يصيـــب الســـمع بـــالوقر
هنـــاك النـــاسُ غـــيرُ النـــــــاس في الإخبـاث والذِكـر !
فهـــذا خـــاضع شـــاكٍ وهـــذا دمعـــه يجـــري
وهـــذا ينشـــج النشـــجةَ تســـتعصي علـــى الصـــدْر !
وهـــذا يُرعَـــدُ الرَّعـــــدة في أعضائـــه تســـري !
وهـــذا ينـــذر النّـــذرَ وهـــذا جـــاء بـــالنذر
وهـــذا صـــائح : يـــا سيِّـــــدي عطفًـــا علـــى فقـــري
علـــى عجـــزي وإهمـــالي علـــى ضعفـــي علـــى ضـــري
وقـــد جُلّلـــتِ القُبَّـــة بالزينـــــة والسِـــــتر
وبَيْضـــاتٍ مـــن البلّـــور عُلّقـــنَ علـــى الجُـــدْر !
فمـــن حُمـــر إلى صُفـــر إلى زُرق إلى خُضـــــــر
ومصبـــاح كبـــير الضـــوء مثـــل الكوكـــب الـــدرّي
وللتـــابوت معنـــىً مِـــنْ جـــلال العِتـــق والقـــدر[1]
قـــد اســـودَّ مـــن التقبيـــل في مختلـــف العُصْـــرِ !
عليـــه ضِبَـــبُ الفِضّـــــــة في أســـودَ كالحِـــبر
فتبـــدو كثغـــور الزِّنْـــــــج إذ تضحـــك مـــن أمـــر !
فثَـــمَّ الضـــم والتقبيـــــــل بـــالثغر وبـــالنحر
تلاقـــى فيـــه دَمْعـــا الشـــا ب والجاريـــة البكـــر !

* * *

(١) العتق : القدم .

ولمـــا ســـكن الجمـــعُ ســـكونَ المـــوج في البحـــر
تـــراءى النـــاس شـــيخًا ذا شقاشـــقَ فيهـــم هُـــدْر
ينـــادي : أيهـــا النـــاس اهْـــ ـــنأوا بـــالفوز والنصـــر
بهـــذي النعمـــة العظمـــى بنيـــل الفضـــل والفخـــر
قصـــدتم بـــاب ذى عطـــفٍ وذي جـــود وذي بـــرّ
وإنّ الشـــيخَ لا يـــترُكُ مـــن زار بـــلا أجـــر !
عليكـــم بخلـــوص القصـــ ـــد في الســـر وفي الجهـــر
وبالتســـليم للأقطـــا ب والخِدمـــة والصَّـــبر
وإيـــاكم وســـوءَ الظـــ ـــن بالصوفيّـــة الغـــرّ
فـــأهلُ اللّـــه هـــم . جـــازُوا منـــاطَ النهـــي والأمـــر !
ملـــوكٌ لهـــم التصريـــ ـــف في الـــبر وفي البحـــر

* * *

سمعنـــا أنْ في (حـــدرى) تباشـــيرَ مـــن الكُفـــر ![1]
تصـــديَّ ناشـــئ غِـــر بـــلاه اللّـــه مـــن غـــرّ !
يُربّـــى الشَـــعْر كالفُسَّـــا ق إذ يُعْنَـــوْنَ بالشَّـــعر
تلقـــى مـــن فنـــون العِلـــ ـــم مـــا زاد علـــى القَـــدْر
فـــــأغواه وأرداه وجـــاء النفـــع بـــالضّر
ومـــن شِقْوتـــه استحلـــى حميـــمَ الأدب المـــزري
جـــريء القلـــب لا يعبـــ ـــأ بالتهديـــد والزجـــر

(١) تطلق حدرى على ما سفل من حضرموت كشبام وسيوون وتريم . وعلوي على ما علا منها كدوعن وعمد ووادي العين .

يبث السم في الجاهـــل والعلاّمة الحِبْر
يسيء الظنَّ بالأقطاب أهل المدَد السّرّي !
له أتباعُ سوءٍ كلّهم يدعو إلى الشّرّ

* * *

هنا قمت وقد ضاق بي الواسع من صدري
وما باليت بالغوغاء في عسكرها المجر
وقلت اسكت عجوز السوء يا داعية النكر !
عدو الله والإصلاح ! هل تهذي ولا تدري ؟
أتدعو الناس للنكر وتهجو داعيَ الخير
فصاح الشيخ : غولوه فذا من شيعة الغِرّ
فلولا أن تسلّلت من الجمهور بالفرّ
لكانوا أعدموني مهجتي بالضرب والدّفر(١)

همام : (**يضحك ويقوم إلى محمد ويضرب على كتفيه**)

حماك الله من سوء وقاك الله من شَرّ
لقد قمتَ مقاماً لا يُوازي عُظْمَه شكري
ولا بد لذي الإصلاح من عزم ومن صبرِ

* * *

(١) الدفر : الدفع في الصدر .

المشهـــد الثانـــي

« في دار (حسن) في الطابق الثاني . غرفة كبيرة مفروشة بمختلف السجاجيد الثمينة ، مكسوة جوانبها التي تلي الجدار بالمفارش الجميلة عليها الوسائد والمياثر الناعمة .

علويـة : **(داخلة الغرفة)**

أيهـا الربـــع سـلامٌ عليكـم !

خديجة : **(ناهضة لاستقبالها)**

وعليكـم ألـفُ ألـــفِ سـلامٍ !

مرحبًـا أهـلاً بشخص كريـم　مرحبًـا بابنـةِ قـوم كـرام

(تتصافحان فتجلسان)

علويـة : يا صبـاحَ الخـير !

خديجة : هـــذا صبـــاحٌ　بـكِ طَلْـقٌ ثغـرُه في ابتسـام

علويـة : كيف حـال الربـع ؟

خديجة : في خـــير عيــش　نسأل الرحمن حُسْـنَ الـدوام

علويـة : أين حُسنٌ ؟ إن شوقي لحسـن　مثل ما اشتاقَ إلى الماء ظـامي !

خديجة : هـــي في غرفتهـا

علويـة : إئذنـــي　أن أراهــا ..

خديجة : هي ذات احتشـام

تستحـــي من زائرينـا

(تقبل الخادم بعدة الشاي)

علوية : ومـــاذا ؟

خديجة : قصدُنا الأنسُ وطيبُ النّدام

علوية : قَسمًا أشْرَبُ إلاّ إذا ما نشرتْ حُسنٌ بساطَ المدام

خديجة : (مبتسمة)

أتُجيدين احتيالاً كهذا ؟

علوية : إنما أمْلَى احتيالي هيامي

(تقوم خديجة ثم تقبل وتقبل وراء ها حسن تمشي على استحياء)

علوية : (**قائمة**)

مرحبًا بالبان يهتزُّ لينًا ! مرحبًا بالبدر بدر التمام !

(تدنو فتقبل حسنا على خدها فتقبلها حسن على رأسها وتجلس إلى عدة الشاي)

يوْه ! ما أجملها من فتاةٍ يوْه ! ما أصلحها لهُمام !

صلواتُ الله تغمر طه وحماها الله من عين رام

(يخفق قلب حسن ويتصاعد الدم إلى وجنتيها فيتوردان وتطرق حياء وتتشاغل بإصلاح الشاي)

خديجة : (**في تجاهل واستغراب**)

مَن همام ؟

علوية : تسأليني عنه ؟ ليس يخفى البدرُ بين الأنام !

ذلك المُصْلِح زَيْنُ شباب القُطر ذو الهمةِ والإعتزام

ذلك الحالي بكل جميل ذلك العاطل من كل ذام

ذلك المشهور في كل قُطر بمزاياه الكِثارِ العِظام

والذي سارت بحُسنِ قوافيـ ـه إلى مصر وأقصى الشام

(تلاحظ ارتياب خديجة فيما إذا كانت هي رسولاً من همام وسفيرًا له)

لا تظنيني رسولَ هُمام أنا لا أعرف شخص همام

إنما آسفُ أنَّ كريمًا مِثلَه يُمنى بقوم لئام

هو يسقيهم كئوسَ حياةٍ وهمُ يسقونه كأس سام[1]

خديجة : ما تقولين ؟ أليس همام حاد عن نور الهدى للظلام ؟

ودعا الناس إلى أن يقولوا فيه ما قد زَوَّروا من كلام

علوية : ما استطاعوا أن يَزُنُّوا إلا بالذي يُعليه أسمى مقام

خديجة : إن قلبي ليَودُّ هماما ورضى بنتيَ أقصى مرامي !

(تلاحظ علوية من كلام خديجة أنها مقتنعة بحب حُسن لهمام فتقاطع حديثها وتلتفت إلى حسن قائلة) :

أتحبين هماما :

حسن : **(في تلعثم وخجل)**

ومَن لا يعـ .. ـشق الحُرَّ الحسيب العصامي

فَرَع الناسَ بعلم وخُلق وجهادٍ في الهدى واعتزام !

خديجة **(عائدة لتتمة حديثها)**

غير أني لا أطيق كلام النـ ـاس في زوج ابنتي بالملام

فلزوج البنت عندي محلٌّ في السويداء من القلب نام

خبّريني كيف أدفع عنه حين يُرمى بالفِرَى وأحامى

ليته خلّى زمام الورى فيـ ـهم ، فما كان بربِّ الزّمام

فيم يهتمُّ بأمر سواه وهو لمّا يَعْدُ سنَّ الغلام ؟

---

[1] السام : الموت

لـو تملـى بليـالي صبـاهُ فمضـت في غبطـة وسـلام !
لـو تخلى عـن شـؤون البرايـا وتولّـى شـأنه باهتمـام !
وتعامـى عنهُـمُ !

علويـة : هـو يخشـى غضـب اللّـه لهـذا التّعـامى
فالذي يكتـم علـمَ الهـدى يُلْـجَمُ مـن نـار لظـّى بلجـام
إنمـا ضـرّ البرايـا تعـامى هـؤلاء العلمـاء الضخـام
يبصـرون النـورَ وهـو مضـيء فيلـوذون بسـتر الظـلام !
ويـرون النـاس في ليـل جهـل يتدجّـى أفقـه بالقتـام
يـتراءمون علـى كـل قـبرِ ومصـاب الديـن في ذا الـترامي
ويـرون المنكـرات عظامـًا فـتراهم عندهـا كالعِظـام
ويقولـون : لنـا بـالألى قـد غبروا من قبلِ حسن ائتمـام
أنـرى نعـزو إليهـم ضـلالاً وهـم أمثلـةُ الاعتصـام ؟
مثـل هـذا عذرهـم وهـو عـذر سـوف لا يقبـل يـوم القيـام !

* * *

فخليـق بفتـى كهمـام أن نـرى غيرتـه في اضطـرام
إذ يـرى موطنـه في انحطـاط ويـرى أمتـه في انقسـام
دب فيهـا داءُ جهـل وخلـفٍ وعـداء قـاتلٍ وخِصـام
فانـبرى ينعشـهم مـن خمـول ومضـى يوقظهـم مـن منـام !

خديجة : فهبيـني قـد رضيـت ، فمـن لي بشهابٍ وهـو صعـب الزمـام ؟
وهـو لا ينفـي ويثبت أمـرًا بسـوى رأي (الوليّ) الإمام !

جاءه من قبل عشرين يومًا   فنهاه عن قبول همام
ورجا تزويج حُسن (لبكرٍ)   فبه اليمن وحسن الوئام
قال : إن المصطفى يتأذى   من همام ، قلبه منه دام
وأولو البرزخ سوف يغيرو   ن عليه عاجلاً بانتقام

علوية : (في غضب)

ذلك الدجّال لا ريب فيه   أولِيُّ الله عبد الحطام ؟؟
قد رشاه بالريالات بكرٌ   والرُّشى للقطب غير حرام
أفؤاد المصطفى غير راض   عن غيور عن هداه يحامى ؟!
وأولو البرزخ كيف يغيرو   ن على حيٍّ وهم في الرجام ؟؟
معشرٌ ماتوا وصاروا إلى النيـ   ـران ، أو صاروا لدار المُقام
تُرَّهاتٌ جعلوها من الديـ   ـن ، تعالى ديننا المتسامى !

* * *

المشهد الثالث

(علوية تزور زهراء في بيتها)

علوية : صديقتي ! إني لمشتاقةٌ إليكِ

زهراء : واشوقي للقياك !

(تتعانقان بلهف)

أهلاً بمأتاك ، وشكرًا لذكـ   ـراك فقد جرّتك ذكراك

علوية : عندىَ بشرى لكم

زهراء : بشّرى   علَّ المنى في طيٍّ بشراك

علوية : أيــن همــــام ؟

زهراء : أهي بشـــرى له ؟ هاتـــي أطـــال ا الله محيـاك !

فإنـــه ثـــمَّ علـــى حالـــةٍ من الأسى يبكـي لها البـاكي !

علوية : يبكـي لها البـاكي ؟ ألا ويحـه ويـح لـذاك الأسـد الشــاكي !

زهراء : هـاتي أبيـني : مـا الـذى جئتنـا بـــه ؟ رعـــاك ا الله مـــولاك

لعـلَّ أن تفثـأ عنـــه الأســى يمنـاكِ ، مـــا أبـرك يمنـــاكِ !

علوية : خديجـة ليَّنـــت مـــن قلبهـــا على همــــام

زهراء : هــل جـــرى ذاك ؟

كيـف وأيـــن ومتـــى ؟

علوية : زُرْتُهـــــــا أمـس وهـاكِ مـا جـرى هـاكِ

« تقص عليها حديث أمس كلـه مما جرى بينهـا وبـين خديجـة وحسن .

تستأذن زهراء لتبشر هماما . تنطلق إلى غرفته وتعود بعد حـين إلى علوية » .

زهراء : بشـــرته فـــانهملت عينـــه مـن فـرح مـا كـان لـولاك

وقـام مـن مضجعـه ناهضًـا يشـكر حـقَّ الشـكر مسـعاك

علوية : لم آت مـا أُشـكر مـن أجلـه !

زهراء : بمثـــل ذا اللطـــف عرفنـــاكِ

إن همامًـــا قـــانع في الهـــوى بكذبـــة مـــن فـــم أفـــاك !

ويـــأخذ اللفظـــة فـــألاّ لـــه مـــن قصـةٍ يوردهـا حـــاك !

وقد يـــرى الحليـــم فيعِنـــدُه نور رجـاء وسـط أحـــلاك

فكيف لا يبكي سرورًا وقد جاءته بشرى مثل بشراك ؟
أما شهابٌ فله خِلّه محمد ذو الخلق الزاكي
لازلتما عون أخي دائما والله يرعاه ويرعاك !

* * *

المشهد الرابع

« سالم في بيت السيد (ولى الله) لتحقيق المهمة التي كلفه محمد إياها . يدخل على ولي اللّه في غرفة فخمة مزدانة بكل ما يستطاع الحصول عليه من الفرش الثمينة والمتاع النفيس . يجده مستندًا إلى جمهرة من الوسائد مادًا رجليه لرجل عنده يكبسهما ».

سالم : سيدي يا صاحب السر العظيم يا ولي الله يا غوث العديم
متّع اللّه بمحياك الورى إنما وجهك مصباحُ العتيم

الولي : مرحبًا بالخادم البرِّ الذي خصه الرحمن بالقلب السليم
حَسِّن الظن بأهل السرِّ يا خادمي تحظ بجنات النعيم
آه - لو يعرفني هذا الورى لأتوني من قصيّات التخوم
أنا جيلانيُّ هذا العصر ، قد وطئت رجلاي أعناق النجوم
خضت بحرًا وقف الخلق على ساحليه في ذهول ووجوم -
من رآني أو رأى من راءني فهو محظور على نار الجحيم
أهل هذا القطر ما دمت به في رخاءٍ وهناءٍ مستديم
يولد الطفل على عيني ، كما يرحل الراحل أو يغني المقيم
أسعد الناس بنا أحسنهم نيةً فينا فذاك المستقيم

وأشدُّ الناس خسرًا من بنا ساء ظنًا فهو شيطان رجيم !

ذاك في نار لظًى مهما يكنْ كامل التقوى يصلي ويصوم !

ولقد قام أخيرًا ناشئٌ صرفته عن رضى الله العلوم

رام إسقاط مقام الأوليا جاهدًا ينفث في الناس السموم

زاعمًا أنّ الورى في ضلةٍ وهو يمشي وحده النهج القويم

هكذا من كان لا شيخ له من أولى الباطن في الغي يهيم!!

سالم : سيدي علَّ همامًا قصدكم ذلك المفتون بالرأي السقيم

الولي : نحن لم نعن سواه

سالم : أنا لي في علاج الناس أسلوب حكيم

ربما اسطعتم به إن شئتم أن تردوه عن الغيّ الذميم

الولي : أنت لا تستطيع أن ترجعه للهدى أو تحييَ العظم الرميم

إنَّ هذا المحال !

سالم : إنّني بالذي يُغري همامًا لعليم !

إنّني أعرف مثوى ضعفه فسأرميه بنبلي في الصميم

إنّه يهوى فتاةً لشبا بِ هوى قيس لليلي في القديم

هو في غير الهوى ضرغامة وهو في الحب ضعيفٌ كالظليم

وشهابٌ خاتمٌ في كفّكم ليس يعصى لكم الأمر الكريم

لو سعيتم لهمامٍ عنده فضمنّا لكم أن يستقيم !

الولي : (في غضب وهياج)

ليت شعري كيف أقضي حاجة لفتى نغص من عيشي النعيم ؟

كبه الله على منخره ! وسقاه الله في النار الحميم !

كم عناني أمره من ماردٍ ! ولكم عذّب قلبي بالهموم !

والـذي نفسـيَ فـي قبضتـه وبه السَّبْع السماوات تقوم !
نحـن لـولا أنَّ في غضبتنـا حِطةً من رتبة (القطب) الحليم
لضربْنـا ضربـةً تنسِفـه وتركنـاهُ كمـذْروّ الهشـيم
وأصـابتْ بيتـه نائبـةٌ تذهل المرضع عن رعي الفطيم

سالم : إنمـا نقضـي علـى أنفاسـه إن جعلنـاه إليكـم يستنيم
إنَّ هـذا لهـوَ الـرأي الـذي يحفظ الناس من الداء الوخيم

الولي : أتـراه يرعـوي عـن غيِّـهِ إن أعنَّـاه علـى نيـل المروم ؟

سالم : ذاك مـا لا شـكَّ فيـه ، وأنـا لكـمْ بـالكفِّ عـن ذاك زعيـم

الولي : خـادمي ! رأيك هـذا صـائب فهمـام خطـرٌ فينـا عظيـم !
غير أنَّ الأمـر قـد فـات ولم يبق في الرأي مجـال للحكيـم
قد خطبناهـا (لبكـر) قبلـه وحبانـا منـه بالمـال الجمـوم
فرميناه (بصندوق القـرى) لغريـب أو فقـير أو يتيـم !

(يسكت قليلاً ثم يقول)

كـم همـامٌ دافـعٌ مـن مالـه ؟

سالم : ضعف بكر أيها المولي الكريم

الولي : ذا إذًا ألـف ريـال ! هاتـه قم ! وثق أنَّا سنقضي مـا يروم
إن بكـرًا ذو غنـىً ، لكنـه يـابس الكـفِّ شـحيحٌ ولئيـم !
سـيرى عاقبـة البُخـل غـدًا عندما يُخطِئه الوجـه الوسيم !

(يستأذن سالم بالانصراف فينصرف . يعود إلى بيت ولي الله من الغد)

سالم : قــد فعلنـــا كـــلَّ شـــيءٍ وظفِرْنـــــا بهمــــــام
وارتضـى مــا قــد شــرطنا ه عليـــــه بـــــالتزام
وهـــو مســـرورٌ بهـــذا شـــاكر سـعي الإمـــام
تـــاركٌ دعوتـــه النّكْـــــــراء مـــن أجْـل الغـــرام

الولي آخـــذ أن ليـــس يؤذيـــــ ـــكم بفعـــلِ أو كـــلام

سالم : أيـنَ مـا أعطـاك ؟ هـل أقـــ ـــبلتَ بالمـــال الـــلزام ؟!

الولي : هـــاك تحويـــلاً إلى « جـــا وَا » بـــألف بالتّمــــام
(يمد يده للتسلم)
هاتـــه ليـــس لِجَيْـــبي بـــل لصنـــدوق المقـــام !!

* * *

المشهـــد الخامـــس

بين ولي الله وشهاب :

الولي : جـاءَني الليلـة آتٍ في المنـام صائحـا يهتـف حسـنٌ لهمـام
إن بكـرًا فسـدت نيتـه فـى توليهـا بحـبٍّ واحـترام

شهاب : إنـه يـا سـيدي مبتـدع

الولي : إنـه قـد تـاب عـن هـذا الإثـام

شهاب : **(في استغراب)**
ومتـى تـاب ؟

الولي : أتـاني نادمًـا أمس مما بثّ في النـاس السمام
إذ دعونـا الله أن يهديـه سمـح الله بـإدراك المـرام

شهاب : **(في خضوع وتسليم)**
ليكـن مـا شئتم يـا سـيدي نحن نرضي رأي مولانـا الإمـام

* * *

المشهد السادس

بين زهراء وخديجة :

زهراء : صديقتي ! إنَّ قلبي ممَّا فعلتم لموجعْ
أشتاقكم غير أني من وصلكم أتمنّعْ
فإنَّ جرحي منكم فيه الأسا[1] ليس ينفعْ
ولو أطعت صوابيَ ما جئتكم أتسكع

خديجة : زهراء : لا بأس بالعتب فهو للودّ أجمَع
ما ساءَ قلبك مني ؟ قولي لعلي أرجع !
فربما خبَّ واشٍ فينا إلى الدحس يهرع[2]
وذا زمانٌ لئيمٌ فيه المودات تقطع

زهراء : إن هماماً شقيقي له بقلبي موضع
فنيلكم منه نيلٌ مني بغير تورُّع

خديجة : زهراء ! أسرفت في تهْمَتِي ، فبَعْضَ التسرُّع
فما ذكرت هماماً إلا بما عنه يسمع
من الخروج على الناس في تقاليد تتبع
قصصت ذاك لعصماءَ من بنات المشفع
لأنها لهمام رأيتها تتشفع
قامت تدافع عنه بحجج ليس تدفع

(١) الأسا : مصدر أساه يأسوه داواه أي لا تنفع المداواة فيه .
(٢) الدحس : إفساد المودة بين الصديقين .

وإن قلبي ليهوى حبيب (حسن) المشيع

زهراء إذن فماذا التأبي منكم وهذا التمنع ؟

إلا رحمتم فتًى من هجرانكم يتوجع

تكاد أحشاؤه من نشيجه تتقطع

خديجة : إن الإبا من شهاب وما لما شاء مدفع

لأن رأي شهاب للعارف القطب يرجع

زهراء : (في غضب)

القطبُ لِصٌّ عن الإرتشاء لا يتورّع

يشرى ويبتاع « حُسنًا » خلف المطامع يهبع

كأنها سلعة في السُّوق تحطّ وترفع

ألمْ يبعها « لبكرٍ » ذاك البغيض المُدفع ؟

كأن سود الدياجي بوجهه تتلفع

ثم أرتجي من همام همام ألفًا لكي يتشفع

وربما باعها في غدٍ لزيد ومرتع

والناس ظنّوا أباكم تسلم المال أجمع

إن الوليّ عن السوءِ عندهم يترفع !

أبوكم ليس يدري مما عن الناس يسمع

ولو درى لتبرًّا من الوليّ المرقّع

خديجة : (وهي تتألم) :

أقد تُحَدّثَ عنا بذاك في كل مجمع

يا ويلتاه ! أنؤتي من حيث لا نتوقع ؟

إنا أناسٌ على عزّ نا نحامي وندفع

أعراضنـــا هـــي أغلـــى   مـــا في الحيـــاة وأمنـــع
لـــو كـــان يـــدري شـــهابٌ   لمـــا تهنّـــا بمضجـــع
وســوف يــدري عســى عــن   هـــذا المدجـــل يُقلـــع

(تتنهد وتستعبر)

يـا ليـت (سـعدًا) لدينـا   في أمرنـــا اليـــوم يقطـــع
لمـــا ألانـــا اجتهـــادًا   في أخـــذ مـــا هـــو أنفـــع
لكنـــه غـــاب عنّـــا   تســـع ســـنين وأربـــع
في أرض (جـــاوا) الـــتي   تـــأكل الرِّجـــال وتبلـــع
راحَ ليجمـــع مـــالاً   لنـــا بـــه نتمتـــع
يا بئـس مـا جمعـت كفُّـــ   ـــه ومـا هـو يجمـع !!
مـــاذا يفيـــد الغـــني مـــن   يخســـر أهـــلاً ومربـــع
تزوجـــت « مزفـــةٌ » عُـــرْ   ســـها بـــه لم يُمَتَّـــع
تُســـأل : أيـــن أبوهـــا ؟   فـــلا تُجيـــب ، وتدمـــع
وهـــذه أختهـــا أوشـــ   ـــكت تـــزف وتخلـــع
فواشـــقاءَ حيـــاةٍ   فيهـــا الفـــؤاد مـــوزَّع

*   *   *

المشهد السابع

(بين سالم وشهاب) :

سالم : مـــالي أراك كئيبًـــا ؟ مُنْتَقَمًـــا يـــا شـــهابُ ؟
فمـــا أصـــابكَ ؟ قـــل لي

شهاب : إنـــي بخطـــبٍ مُصـــابُ !
ذاك الـــذي كـــان يدعـــي بذِكْـــره ويُجـــابُ
ومَـــنْ بغرتـــه كـــان يُسْـــتَدَرُّ السَّـــحاب !
مـــن كنـــت أبصِـــرُ أخطـــا ءَه وهُـــنَّ صـــوابُ
قـــام يُلـــوِّثُ عرضـــي بمـــا بـــه النّـــاس عـــابْوا
فقيـــل إنـــي طَمُـــوع بالمـــال وهـــو كِـــذَاب
لـــولا المُدَجِّـــلُ هـــذا لمـــا علانـــي عـــابُ
لله درُّ هُمـــــــام فهـــو الحكيـــم العجـــاب
إذ قـــال : أمثـــال هـــذا في المتقـــين ذِئـــابُ !!
وإنمـــا ســـترتهم عـــن العيـــون الثيـــاب !
فمـــا نـــراه شـــرابا مـــا هـــو إلا ســـراب

سالم : أنـــا الـــذي ســـلّمته مـــالَ هُمـــامٍ بيـــدي
فـــلا تكـــن مـــن أمـــره في شـــكّ أو تـــردُّد
إن هُمامًـــا لَلعصـــا مـــيُّ الكريـــم المحتـــد
مهمـــا يقـــل فإنـــه زيـــنُ شـــباب البلـــد
رآك لا تصغـــــي إلى غـــير كـــلام (الســـيد)

ولم يجـــــد إلا وليّ ‌ ‌ ‌ الله خـــيرَ مســـعد
فلـــم يـــدع رأي صديـــ ‌ ‌ ‌ ـــقه الفتـــى « محمـــد »
ولم يكـــن ذاك الـــذي ‌ ‌ ‌ يهـــدي الـــورى بمهتـــد
مَـدّ إلى الدرهـــم جيـــ ‌ ‌ ‌ ـــدَ ذِلّـــةٍ في صَيـــدٍ !!
وكـــان مـــا كـــان فـــلا ‌ ‌ ‌ تغضـــب ولا تفنّـــد
أنـــت عليـــك الغُـــرم ‌ ‌ ‌ والغـــم لـــرب المـــدد !
هـــذا جـــزا تـــارك رأيـــ ‌ ‌ ‌ ـــه لـــرأي أحـــد !!

* * *

المشهـــد الثامـــن

(بين شهاب وبكر) :

بكر : يا عـــم مـــا الـــذي جـــرى ؟ ‌ ‌ ‌ ردَدتَ مـــنيَ اليـــدا
ألســـت قـــد قبلتـــني ‌ ‌ ‌ فمـــا عـــدا ممـــا بـــدا ؟

شهاب : **(يتجلد ويخفي غضبه)**

حظـــك يـــا بكـــر الـــذي ‌ ‌ ‌ حـــلاً عنـــك المبـــوردا
فـــاطلبْ ســـواها تلـــ ‌ ‌ ‌ ـــقهنَّ كالرمـــال عـــددا

بكر : **(في وقاحة)**

وأيـــن أمـــوال الـــتي ‌ ‌ ‌ أنفقـــت فيهـــا بـــددا ؟

شهاب : لمـــن دفعتهـــا ؟!

بكر : لمـــوْ ‌ ‌ ‌ لانـــا الـــوليّ المفتـــدى !

شهاب : **(في سخرية)**

إذن فخذهـــــا منــــــه لا   تطلـــــب ســــواه أحــــــدا

بكر : (معترضًا)

أعطيتـــــــه لأنـــــــه   كـــان لكـــم معتمــــدا

شهاب : (في غضب)

خســئتَ يــا نــذلُ فقــم   وخـــلِّ عنـــك اللـــددا !

أليـــــس فينــــا حاكـــمٌ   يحـــكم هـــذي البـــلدا ؟

فاشـــكُ إليـــه مـــن علـــى   مالك ـ إن شئـتَ ـ اعتـى !

بكر : (في تضعضع وخجل)

إذن ... فمـــالي كلُّـــــه

.. أكلــــــه .. وازدردا ..

إذن ... فلـــم يعطـكَ مـــن   مـــاليَ ... شـــيئًا أبـــدا .. !

أمـا اكتـــفى بمـــا ارتشــــا   ه نصـفَ ألـــفٍ عـــددا ؟

يـــا ويلتـــا ! واحســـرتا !   واحزَنــــا ..! واكمــــدا !

لأرفعــــــنَّ أمــــــرَه   إلى الأمـــير « أمجــــدا »

أفضحــه عنــد الــورى ..!

شهاب : (وقد سرى عنه)

الآن أبصـــرتَ الهــــدى !

بكر : (يتنهد)

فليمـــض مـــالي لظهـــو   ر ســـــيئاته فِـــدَّي !!

* * *

المشهـــد التاســـع

(همام في مجلس الأمير « أمجد » وقد دعاه إليه) :

الأمير : أتـدري يـا همـامُ لأيّ أمـر دعوتـــك لي ؟

همام : لخـير يـا أمـــيري ؟

الأمير : ألم تعلـم بمـا اجترمتـه كفـا ولي ا لله مـن إثـمٍ كبـير ؟

همام : بلى هـذا حديـث قـد فشـا في حمانـا في الكبـير وفي الصغـير

الأمير : فمـاذا أنت يا سنـدي مشـير به في مثـل ذا الأمر الخطـير ؟

همام : أرى أن تَحْبســـوا الجانـي وأنْ لا

تمسُّـــوه بســـــوء أو نكـــير

فمطلق حبسه كاف ـ أراه ـ لردع سـواه من أهـل الشرور

الأمير : ولكـن والـدي يخشـى علينـا ـ إذا عاقبتـه ـ سوءَ المصـير

يُحـاذِر دعـــوةً منـــهُ علينـــا فتُلحِقُنـــا بأصحـــاب القبـــور

همام : أمير ما عهدتـــكَ غير حـــرٌ طليـــق الفكر متقد الشعـــور

وحســبك ما قـــرأت عليـــك طـــردًا

لأوهـــامِ توســـوس في الصُّـــدور

أتعـــرفُ إثمـــهُ وتخـــاف منـــه ؟

أتقبـــل دعـــوة العاصي الكفـور ؟؟

كـذاك الوهـم تُشـربه نفـوس فتشـهد مـا تُخيَّـل مـن أمـور

وقـل لأبيـك ذا بكـرٌ شـكاه وهتّـك مـا عليـه مـن ستور

فلو كان الولي لديـه حـولٌ لكان رمـاه بالسهـم المـبير

فإن تحبسه جئت بـه دليـلا يسجِّل عجز أقطاب الغـرور
فليـس أذاه مقصـودًا ولكـن لِيَبْطـل سـحرهُ بيـد الأمـير !
الأمير : لقـد قـررت هـذا الـرأي قبـلا فبورك في ذكـائك مـن مشـير
وإن الدّجل أبغـض كـل شـيءٍ على الدُّنيـا يضيـق بـه ضمـيري

* * *

المشهـد العاشـر

(يأتي لزيارة محمد فيستقبله محمد في غاية الحفاوة)

شهاب : محمدُ أنـتَ الجـريءُ الفـؤاد وأنـت صديـق هُمـامَ الـوفي
فلـو كـان مـن ربِّـهِ مُرسـلا لكنـتَ حواريَّـه المقتفـي
وتعلـم مـا كنـت أوذِي هُمـا مـا بـه غـيرَ هـادٍ ولا منصـف
أتـابعُ في أمـره مُفسـدًا يبيـع ويبتـاع بـالمصحف !
وإنـي علـى مـا مضـى نـادمٌ وأنت بإصلاح أمري حفي[1]
محمد : ألا مرحبًـا بالسَّـليم الفـؤاد وبالطَّـاهر السيرة الأشـرف
بعتم حبيْبة خير الرِّجال بمن لا بصهْـر هُمـام الوديـع الصَّفـي
بمن لا يُقِـرُّ علـى المنكـرات وليـس يُطـاطئُ للمِعْسَـف[2]
همـامٌ يُحبّـكَ مهمـا فعلـتَ بـه عـن ولائـك لا ينتفـي
يـراكَ أبـاهُ فمهمـا قسَا عليـه لتأديبـه يعطِـفِ

(١) عارف وخبير . (٢) هو الظالم الشديد العسف .

(يبتسم شهاب وتتهلل أسارير وجهه)

شهاب : فلله ما كان أنقى همًا وأشرفَ أخلاقهُ الساميه !
أضارسُه ثم يبقى ودودًا عليَّ طويَّته صافيه ؟
محمد : بقدر نبالةِ أخلاقِهِ يحبُّ حبيبتَهُ الغاليه !
تمادي به حبُّها فهو لا يقِرُّ القرار له ثانيه !
يبيت يناجي نجوم السماء ويخضع أدمعه العاصيه !
ويجلس في بيتهِ للطّعام إذا ما أجاب له داعيه !
فيُذهلُه الحبُّ عما لديه حتى لتنكفِئُ الآنيه !!
وإني لأخشى عليه إذا تماديتم الضربة القاضيه
هنالك نخسر زَيْنَ الشباب ونحرَم أنفاسَه العاليه !
ويسألكَ الله عن مهجةٍ قضت بك مصلحة هاديه
شهاب : (وهو يبكي)
كفى يا محمد ! إني أتيت لتكفير أعماليَ الخاطيه
فلو كان ذنبُ هُمامٍ فحسب عليَّ لخفَّ على باليَه
أزوِّجُه اليوم من حسنِهِ فيغفر زلاتي الماضيه
ولكنني قد عصيت الإله وعرّضت نفسيَ للهاويه
لقد غرَّني وعد ذاك الوليّ بمحو خطيئاتيَ الخاليه
وبشَّرني أنه قد رأى قصوريَ في الجنة العاليه
فلم أتزوَّدْ لدار البقاء اتّكالاً على الزُّلفِ الواهيه
فأيقنت ذا اليومَ أن ليس ينفعني غير أعماليَ الزاكيه
وأن ليس يمحو خطايايَ غير النصوح من التوبة الماحيه
نصائح كان ينادي بها همامٌ فنرمي بها ناحيه
فها قد بدت لجميع الأنام مخازي مُدجلنا الغاويه

محمد : سلامٌ عليك دموعك هـ ـذي لتطهير أدرانها كافيه
فلا تبتئسْ ، إن ربًا هداكَ ليبغي بكَ الخيرَ في الثانيه

« يريد شهاب النهوض فيمسكه محمد قائلا »

وأمرُ هُمام ؟؟

شهاب : وماذا يريد همـ ـامٌ وليس لحُسْنٍ سواه
هي اليومَ بينَ يديه وما مُناي من الدّهر إلا رضاهْ
ولكن. حديث (الرُّشى[1]) المسـ ـتفيض شوّش أفكار أمِّ الفتاه
فما زال يلهَج أهل الحِمى بأن (الوليَّ) همامٌ رشاه
وأن شهابًا تسلّم أموالَ بكرٍ و لم يُعطه مُبتغاه
فقالت نؤخّر تزويجَ حُسـ ـنٍ لِنقطع ألسن هذى الوشاه
فما كان لِلمال إيثارُنا ولكن لعلمٍ وفضل وجاه
فأوص صديقك أن يطمئنّ إلى الصبر حينًا ليلقي مناه

محمد : ألا ليت شعري ماذا يقو ل همامٌ إذا رُعته بالخبر ؟!
أقدّم باقة زهر له وأطوى له الصّلّ بين الزهر
فلو رُحت تنصَحُها بالعدو ل عن رأيها ! علها تأتمر !
علامَ تبالي كلام الطّغام وما ينطقونَ بغير الهذَر ؟
وأعيان (سيوونَ) تدري الـ ـحقيقَ وبعد غدٍ يظهر المستتر
سَيُحْبس هذا الوليُّ الشقي وتفضح سوءاته والعرر

---

(١) جمع رشوة .

شهاب : لعلـكَ تجهـل أنّ النسـاءَ إذا قلـن شـيئًا فهُـن القـدَر
ولا يَرعوين عن الـرأي لـو وضَعْـتَ بأيمانِهـنَ القمـر
فكم قد سعيت وكم قـد نصحت ولكـن كـأنّي نصحت الحجـر

محمد : إذن لـن يطيـق همـام المقـامَ هنـا ،

شهاب : لـيرحْ نفسـه بالسـفر
إلى الشام أو مصر أو للمهاجَـ ـر (جـاوَةَ) أو للبـلاد الأخـر
وبعـدَ ثلاثـين شـهرًا يعـو د ، وسوفَ تمـرُّ كلمح البصر
هنـالك تبلـغ سِـنَّ الـزّواج (حُسْنٌ) وتنضج نضـج الثمـر
وربَّمَـا عـاد (سـعدٌ) إلينـا فـيزهو بـه عُرْسـنا إن حضـر

(ستـار)

الفصـــــل الثالـــث

المشهـــــد الأول

« بين همام وزهراء » .

زهراء : (في جزع)

أهمــــامُ خــبِّرني بــــودّك لي   مــــالي أراك تنضّــد الكتبــا ؟
مــاذا اعتزمتَ أأنـــت تاركنــا   للحادثــات تســومنا الكربــا ؟

همام : (في حنو)

لا يـا أخيَّـــة ! أجملـي جزعــا   لا ينــس قلـب المؤمــن الربــا
سـفري لطـول إقــامتي سـببٌ   ولـرُبّ بُعـدٍ أعقــب القُربــا

(يتغير وجهه)

إنـى أخــافُ إذا مكثــتُ هنــا   أن لا أطيـقَ فــأقضيَ النّحبــا !

(يخالط صوته البكاء)

أيسـرُّ قلبـك أن أمـوت أســـىً   في الرَّبــع إذ تبكيـــنني ندْبــا ؟
أو ما رأيــتِ القـوم قـد قطعـوا   صوتَ الحيـاة وكـان قـد لـبيّ !
حفلوا بسمعتهم ـ كما زعموا ـ   لكنّهـــم لم يحفِلـــوا الصَّبــــا
لِيمُــت شــهيدًا مــن يشــاءُ ولا   يتوهمـــوا في عِرضهـــم ثلْبــــا
آه ! أهـــذا كلُّ ما أ تمنـــــى ؟   ولقد وهبتُ الــــروحَ والقلبا !

(يتذكر حسنا ويستحضرها كأنها ماثلة أمامه تسمع ما قاله فيستحي مما تكلم به في أهلها)

يا حسنُ ! معذرةً فأهلك نا　　لهم الملامُ وما جنَوْا ذنْبا
حاولتُ عَتبهمُ بتَوْءدةٍ　　لكنني لم أُحسن العتبا
ورضاك همي في الحياة ؛ فإن　　ترضَىْ رأيتُ عذابها عذبا !
وإذا غضبت غضبت في بصري　　فأرى الخليقة كلها غضبى !

(ينتبه من ذهوله إلى أنه بحضرة أخته الحنون)

زهراء خليني لأرحلَ عن　　هذي الديار فأسلوَ الحبّا
فلقد لقيتُ به دواهي له　　رُعْنَ الجبالَ تركنها تربا
هيهاتَ هيهاتَ السُّلوُّ ! ويا　　ليت السلوَّ يُباع أو يُجبى !
أفكلما سَفَرَ اللقاء أتى　　آتٍ فسدَّل دونه الحجبا !
أو كلما ابتسم الربيع لنا　　جرت الدبور وهبَّت النكبا ؟

زهراء : (آسفة على أن هيجت أخاها مشفقة عليه)

عفوًا هُمام فليسَ قصدي أن أهيجك يا ابن أمي !
لكن شجاني أن تفارقنا وتركب ظهر يمّ
إنَّ البلاد لسوف تَفْقد فيك نجمًا أيّ نجم
نجمٌ يفيض هدايةً وسناهُ من خلق وعِلم
تبًّا لدهر دأبُه يَرمي أفاضِله فيُصمي
أيَصَدُّ مثلك عن مطالبه ويُمتَع كل فدْم ؟
أهمام إن كنت اعتزمتَ على الرحيل فخيرَ عزم
إذهب وعُدْ عما قريب بين عافيةٍ وغُنْم
سيكون ربك حافظًا لك في الفلاة وفي الخضم
ولسوف تدرك ما تؤمِّل ما ظللت إليه ترمي
ثقي بحسن أن تُعيدك خففت حزني وهمي

همام : (في حزن وأسف)

لكـــنَّ حُســـنا لم تشـــأ تنويـــر خطـــبي المدلهـــمّ
كـــم قـــد كتبـــتُ لهـــا الرســـا ئـــل بـــين منثـــور ونظـــم
فتصـــدّ عنهـــا لا تجيـــب كأنهـــا لا تعـــرف اسمـــي !!
وطلبـــتُ منديـــلاً لهـــا ليكـــون في الظلمـــات نجمـــي
ويكـــون أنســـي في البعـــا د يكـــفُّ مـــن حزنـــي وغمـــي
آوي إليـــه إذا نـــزا قلـــبي بضـــم أو بلثـــم !
ولقـــد أتـــاني ردُّهـــا لكـــن تعـــثر فيـــه فهمـــي
وإليكِـــهِ فاتليـــه ثـــمّ اقضي على حُســـن بحكـــم

(يناولها رسالته إلى حسن وعلى ظهرها الرد منها)

الرســـالـــة :

حبيبـــة قلبـــي علّليـــني بتنويـــلِ
أقَـــضِّ زمانـــي في رجـــاء وتأميلِ
بعثـــتُ إليكِ الكتب تترى ، فلـــم أفز
ببعـــضِ جـــوابٍ منكِ يا غاية الســـول
كأني لم أحمـــل هـــواكِ ، ولم يكـــن
لقـــاؤك قصـــدي في الحياة ومأمـــولي !!
وهـــذي النـــوى قد أوشكت أن تميل بي
إلى عـــالمٍ من رقعـــة الأرض مجهـــول
أقضّي به دهـــرًا قضيتـــم به علـــى
حُشاشـــة صـــبّ عاثِـــر الجدِّ مخذول

فجـــودي بما أمَّلـــتُ منكِ وأجملـــي
وداعـــًا لمفتـــون بحُبـــكِ متبـــول
وإني لراضٍ منكِ يا حُسْـــنُ باللّفـــا
بقطعـــةِ ثـــوب أو بشقّـــةِ منديل ،
لعلـــي أسْطيـــع ابْترادًا من الجـــوى
بضمّـــي إيّاهُ لصـــدري وتقبيلـــي ؟
همـــام

الـــــرد

جوابُكَ عنـــدي ما تظنُّ ، فلا تـــرم
بكُتْبـــك إحراجـــي فإنك ذو علـــم
وإني فتـــاةٌ ليس أمـــري في يـــدي
فإن شئتَ فاطلـــب ما تؤمّل من أمـــي
حُسن

زهراء : (**تلتفت إلى همام والكتاب لا يزال في يدها**)

همـــام أمّـــا جـــوابُ حُسْـــنٍ   فإنـــه أبلـــغُ الجـــواب
دلَّ علـــى الحـــبِّ والتفـــاني   فيـــكَ إلى عِفّـــةِ الجنـــاب
وإنهـــا إن تحـــبَّ يومـــاً   ففـــي حمى الصَّون والحجـاب
إن كتابًـــا يـــأتيكَ منهـــا   رســـولُ آمـــالِك العِـــذاب
ما تبتغـــي أنـــتَ فـــوق هـــذا   يأتيك من غـــادة كعـــاب ؟
لـــولا هـــوًى صـــادقٌ لديهـــا   لم تـــر منهـــا نصـــف كتـــاب
وســـوف آتيـــك بالذي رمْـــ   ـــتَهُ فـــلا تبـــقَ في اكتئاب

المشهـــد الثانـي

(همام على حماره في طريقه إلى الساحل (المكـلا) بعـد أن شيعه إخوانه وأصدقاؤه . أمامه دليله البدري عامر يقـود جملا له يحمل زادهما)

همام : رويـدًا رويـدًا حِمَـار البعـادِ ... فـإنك تبعدُ بي عـن حبيبـي !

ولم يك خطـوُكَ فـوق الثرى ... ولكنـه فـوق قلـبي الكئيـب !

أراك كنعشٍ بجسـمي يسـيرُ ... ولكـن إلى غـير قـبرٍ قريـب !!

فيا بعـد (سَيْوون) عـني؟ ويـا ... ذنُوكِ (جاوةُ) من ذي السُّهوب!

عليهـا السـلام سـلامُ الـودا ... ع، سلامُ البكاء ، سلامُ النحيب

سلام على حسن بين العذارى ... سلام على قلبهـا في القلـوب !

سـلام على دارهـا في الديـار ... سلام على دربها في الدروب ؟

سـلام علـى أهلهـا الطيبيـن ... مـن كـلِّ بَـرٍّ كريـمٍ نجيـب

سـلام علـى وَطـنٍ طـاهر ... تضـوَّع منهـا بمسـكٍ وطيـب

سلام سلام على ساعدي الـ ... أشـدَّ وصِنْوى المطيع الأديـب

سلام على خـيرة الأصدقـا ... ء محمـدٍ الألمعـيّ الأريـب

سلام على لطـف زهـراء إذ ... تفرّج همي ، وإذ تعتـني بي !

(همام فى بلاد الأحقاف)

(يخرج المنديل من جيبه فيضمه إليه ويقبله)

أتعلم يا منديل أنّكَ مُونسي   وأنك عندي للكريم المحبب
وما ضرّ من ينأى - وأنت بكفه   أنيس نواه - أنه يتغرّب

(يمر على آثار مزارع قديمة مندرسة يتمهل في السير قليلا يتأمل في تلك الآثار) .

انظر إلى هذي السهول فقد   كانت مزارع ما لها حد
كانت جنانا لا فُجاءَ بها   - غير الممر لراكب - تبدو[1]
من عدوة الوادي القصيّ إلى الـ   أهضام من حَدْراه تمتدُّ
عمَر الجُدُودُ بها مواطنهم   فغنّوا وعيشهم بها رغد
ما بعد عام الألف ما قدُمَتْ   منه العهود وما بها بُعْدُ
لما تجفَّ بها مواطىءُ أقْـ   ـدَام الألى اشتغلوا بها بعد
البُرُّ والسمراءُ ، والذُرّة الـ   ـبيضاءُ والأفواهُ والرندُ !
والنخل والأعناب حافلةً   بقطُوفِهن كأنها شهد !
والسِّدر يفرش في الفضا بسطا   من سُنْدسٍ خُضرا فينسد
فهنالك النعماء تخطر ما   بين الحقول يزينها البرد
لله عيشهم فلا كَدرٌ   يعتاق صفوهم ولا جهد
دَعْ عهدها العاديَّ من قِدَمٍ   فلقد تقادم ذلك العهد
إذ كانت الأنهارُ جارية   تحت الجنان كأنها الخلد !

---

(١) الفجاء جميع فجوة . ورد في الرحلة المتوكلية وصف حضرموت على عهده حوالي سنة ١٠٦٠ أنها كانت بساتين ممتدة من حضرموت إلى المسفلة لا فجوة بها خالية من الأشجار والزروع إلا مقدار ما يمر الراكب .

تلـك الحقـائق لا يُصدقهـا قـوم عيـون قلوبهـم رمـد
تلكـم بقاباهـا تـدُلُّ علـى ما كـان ـ سَدٌّ دُونه سـد !
يحتـاز مـاءَ القطـر يقسـمه بين الأراضـي حُكمها القصـد
فنمت مزارعها فمـا فَتِئَتْ فيهـا الغيوث تروح أو تغـدو
هي سُنَّةُ البـاري فمـا كثر الْـ ـأشجار فالأمطـار تشـتد

* * *

قف سائل الآثار كيـف ذوت تلـك الخمـائل فهي ذي جُـرد
تخبرك إن نطقـت : وربَّتمـا نطـق الجمـاد وقولـه الرشـد
في بطـنِ أرضٍ أنـت واطئهـا همـم تصـول فليـس ترتـد
تصبو إلى العمـل المفيـد ترى أن السـعادة ركنُهـا الجـدُّ
فتلاهُـمُ خَلـفٌ كـأنهم لا سـاعدٌ لهـم ولا زنـد !
فَسَبِيْلُنا ترديدنـا أبـدًا : نعم الجـدود وبئست الولـد !!

* * *

(همام فى بلاد الأحقاف)

المشهـــد الثالـــث

في منتصف الطريق على مقربة من الريدة (بلاد البدو)
(همام يلتفت ـ وقد كادت الشمس تغرب ـ إلى بدوية عامر)

همام : سر يا أخا البدو وحَثحِث جملك   لا يُظلم اللّيلُ ويشـتدَّ الحلـك
ونحـنُ لـمَّا نـأت بعدُ منزلك   أبلغـكَ الله بخـيرِ مأمـلك
ولا أصـابَ الحـبُّ يومـًا مقتـلك

عامر : هُمام يا خير سَراة العُرب   لا تذكـر الحـبّ لِعـانٍ صـبٍّ
متـى دعـا داعي الهوى يُلبّ   إني أحـسُّ ضرمـًا في القلـب
يدفـع في صَدري ويكـوي جنبي !!

همام : با لله هل تُعْرف معنى الحب؟   ومـا بـه مـن فـرَح وكـرب
وهل سَعِـدْت مرة بالقـرب   أم أنت مثلـي مستطـار اللبّ
لـمّـا يَفُـزْ من حوضـه بشـرب

عامر : أنتَ إذن يـا صـاحبي سـعيدُ   وإنّـي وحـدي أنـا المعمـود
من بعـد ما طابَ ليَ الورود   حَلانـي عن حَوْضِهـا الصُّدود
فليـسَ ليَ صَـبرٌ ولا مَجلـود

همام : أنـت السَّـعيد وأنـا المنكـودُ   فـالوَصل مهما قلّ فهـو عيـدُ
تُشفـَي به من دائها الكُبـود   لكنَّ هجـري الأبـدُ الأبيـدُ

ليتَ الزَّمان لي به يجود وبعدَه تطويني اللُّحود !!

عامر : يَظهر لي من بعض ما أراكا أنك تهواها كما تهواكا
يا ليت حظي من وجودي ذاكا إذن لكنت حامدًا مولاكا
وما شكوت مِثلَ مُشتكاكا

همام : عامر مما زادَني ارتباكا أنا اشتركنا في الهوى اشتراكا
أشكو نواها وهي تشكو ذاكا فيَستهلُّ مَدمعي اشتباكا
لما بَلاها وبَلا أخاكا

عامر : (في حزن)
لا تحسَبَنَّ هَجرها هجرَ شرَف لفرط غنج أو دلال أو ظَرف
لكنه أشنَع ذنب يُقترف تتْركني زوجًا إلى غيري تزف
وصكُّ عقدِها معي لما يجفْ

همام : ربّاه في كل مكانِ ذو شغف يُسلمه الحبُّ إلى مهوى التَّلف
رحماك بالعشاق من جور الهيف ما غار من غور و لم يَعل شرف
إلا وفيه مغرَم القلب دنِفْ

* * *

المشهـــد الرابـــع

(يصلان إلى حي عامر في الريدةِ (بلاد البدو) . يذهب عامر لسقي جمله وإراحته ويسلم هماما لأخته ناهية)

ناهيـة : (منتقبة لا يرى منها إلا عيناها)

أهـــلا بمـــن وافـــى دار أخــــي عـــــامر
إنـــزل علـــى الرحـــب في المـــنزل العـــامر
وأمـــر بمـــا شئـــت فإنــــك الآمــــــر

(تهيء أدوات القهوة وتباشر إصلاحها)

همام : بـــورك يـــا أخـــتُ فيــــكِ وفي عـــــامر
سَـــرَّيْتما عــــنيَ بلبـــــاليَ الثـــــائر
سماحــــةُ البـــــادي يجهلهـــــا الحـــــاضر

ناهية : (منادية)

هلـــمّ يـــا سُـــعْدَى هلـــمّ يـــا لُبْنَـــى !
لنلـــمّ حيّـــين ضيــــف أخيكَنــــا

(تدخل فتاتان جميلتان متلثمتان وتصافحان هماما . ينظـر إلى إحداهما همام نظرة كالسهم . تلاحظ ناهية ذلك) .

ناهية : (لهمام)

إنـي أرى عينيـك عيـني شـــاعر قـل مـا تشـــاءُ ويـك لا تحـــاذر
لا بأس عنـــدنا بلحـــظِ الناظر إنّا نـــرى العفّـــة في الضمائـــر

همام : رأيـــت بـــدرًا نصفــــه في الســحب والنصــف مبــين
هـــبي عليهـــا يـــا نســـيم واكشـــفي ذاك الجبـــين !

(تضحك الفتيات وتقهقه ناهية)

ناهية : لـــو أزاحـــت لثامهـــا لـــك مـــا أنـــت فـــاعل ؟
ولـــو انجـــابت السحائـــــب مـــا أنـــت قـــائل ؟

همام : ســـأريها الغِـــزال لـــو أن بـــــدرًا يغـــــازَل
وســـــتروي روائعـــــي في هواهـــــا القبـــــائل

ناهية : همـــامُ ! مـــا البدويَّـــا ت عنـــد غيـــد المدائـــنْ ؟
الموقَـــراتِ مـــن التـــبر حاليــــات المحاســــن
كأنمـــا أنـــتَ بـــالبَد و ســـاحر أو مداهــــن !!

همام : لا والـــذي فلـــقَ الحَـــــب ، ســرُّه فيـــه كـــامنْ
لفــــي المَهَـــى البدويَّـــا ت معجـــزات المحاســـن
لحـــاظهن ســـــهام لهـــا القلـــوب . كنـــائن
قدودهـــــن رمــــاح في كـــل قلـــب طواعـــن
جمـــــالهن الطبيعـــــي زاخـــــر بالمفـــــاتن

ألم تسمعي ما قال شاعر يعرب أبو الطيب السامي على كل شاعر
تحامي حسان الحضر في الشعر ناسبًا بما في البوادي من مهيّ وجآذر
ما أوجه الحَضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
(حُسن الحضارة مجلوب بتطْرِيـة وفي البداوة حسن غير مجلوب)

(يدخل عامر)

عامر : يا مرحبًا بهمام النَّدب إنزل على سعةٍ على رحب !
هل تشركوني في حديثكم فلعلّكم تجلونَ من كربي

ناهية : ضيفكَ يهوى البدويَّات ولا يحب الحضريات

عامر : أتحِبُّهن همام ؟ إنك شاعرٌ ماذا تعشَّق في ظباء الباديه ؟

همام : أهوى بساطتها وأهوى دلها ولحاظها مثل السهام الماضية
وتُميلني سكرًا طِوال قدودها وتَشوقني منها الخلال العاليه

عامر : إن كنتَ تعشقها فخذ لُبْنى (مشيرًا إلى لبنى)
وخذ إن شئتَ سَعدى (مشيرًا إليها)
(مشيرًا إلى ناهية) أو فخذ لك ناهية

(يضحك الجميع ويضج المجلس بالضحك)

ناهية : أما أنا فلا أحبُّ شاعرا يَلفِظني تمرًا ويهواني رطب

يُطـالع الغيـدَ الحِسـانَ دهـرَه فكلمـا أبصـرَ حسـناءَ نسـب

همام : إني لأدرى من طباع الغيـد مـا يُبيـن لي مـن قولـك المشْـتبَها
لا شيء كالشاعر أحظى عندها وإن تكـن تكرهـه زوجًـا لهـا

عامر : بـأيِّ شيءٍ يفْضـلُ الشـاعر يـا همام عند الغانيـات مـن عـداه ؟

همام : لَقبلـةٌ واحـدة مـن شـاعر أحلى وأشفى من ألوف من سـواه
يودِعهـا مُهجتـه فـيرتوي منها الهوى . وينقع الحب صـداه
يطبَعُهـا علـى الجبين ذاكـرًا كـل خليـل في الزمـان وهـواه !
كأنمـا يجمـع تـاريخَ الهـوى بقبلـة الخدَّيـن أو لثـم الشـفاه

(ينتفض انتفاضة فجائية كأنما تذكر أمرًا عظيمـا . ويبقـى ساعة في ذهول)

أسـتغفر الحـب لقـد أشـركتُ في عبادتـه
مـاذا أقـول لحبيـبي خُنتـه في غيبتـه ؟
أيدَّعـي هـواه مَـن يُخفِـره في ذمتـه

* * *

كـأنني بـالحب يلـو نـي بسـوط نِقمتـه
ألحـدتُ في توحيـده لم أخـشَ مـن عقوبتـه
أكلمـا لاح جمـال هِمـت في صبابتـه ؟

ناهية : عـامر ! مـا للضيـف لجَّ غارقـًا في غشـيته ؟
إنـي أخـاف أن يصـا بَ في الحمـى بميتتـه

عامر : دعيـه ! خليـه ! فـإني عـارفٌ بمحنتـه
سـينجلي عنـه الـذي أصابـه مـن سـكرته

همام : (باقيًا في ذهوله غير منتبه لما بين يديه مستطردًا في حديثه)
يـا حسـنُ ! لا تعـاقبي عبـدك في جريمتـه
فقـد أتـاك تائبًا مـن ذنبـه وهفوتـه
مـا كـان إلا عـابدًا حُسـنك في قداسـته
يشـهَده في كـل وجـ ـهٍ زاخـر بفتنتـه
في طَلعـة البـدر ، وفي الظـبي وحُسْـن لفتتـه
وفي زهـور الـروض في ربيعـه ونضرتـه
وفي وجـوه الغيـد شـيءٌ مـن ضيـاء غُرَّتـه
يختلـف المحـراب والـر بُّ بوحدانيتـه

(يـدار بعـامر ويغشـى عليـه . ترتـاع أخواتـه وتـأخذن في تنبيهه برش الماء عليه)

ناهية : عامــر!

عامر : هــا !

سعدى : عامــر !

عامر : هــا !

لبنى : عامــــر !

ناهية : قــم يا عامــر !

همـــام

همام : (مفيقًا من ذهوله)

مـا لعـامر ؟ هــل نـــ ـــام ؟

ناهية : (لنفسها) يهـــذي الآخــــر !

(ثـم لهمام) أمـا تـراه سـاقطًا مغمـى عليـه يـا همـــام ؟

روعتمـــــــا قلوبنـــــــا الليلـــة في هـــذا الظـــلام ؟

همام : لا تخـافي سـوءًا علـى عــامر إنـي لأدرى بمـا يعانيـه عـامر

أسمِعيـه اسـم زوجـه يصـــ ـــحُ من إغمائــه

ناهية إنهـا لـزوج غـادر !

همام : إن تكـن غـادرًا فـإن هواهـا لجَّ في نفس عـامر والشراشـر !

ناهية : إنـه قـد سـلا هواهـا ؛ أيهـوا ها وقد آثرت عليه ابـن جـابر ؟

همام : صدّقينـي بأنـه مـا سـلاها إنـي عـارف لـه ومخـامر

ناهية : غصـنُ ! يا غصـنُ !

عامر : (**يمسح جبينه**)

أيـــن غصـــنٌ أجـــاءت ؟ مرحبًا مرحبًـا بـأكرم زائـر !!

راجعيـــني يـــا منيـــة القلـــب بـا لله فإني لما جنيـتِ لغـافر !

(**بصوت منخفض**)

أو فخافي من عامر فسيرديـ ـك - على رغم أنفه - وابن كاسر

(**يجلس فلا يرى إلا هماما وأخواته**)

أين غصنٌ أيممت جهة المخدع؟

ناهية : يـا عـامر انتبـه يـا عـامر !!

لم تجئنا غصن ودع عنك غصنًا إنَّ في حيِّنا مئـات الحرائـر !

همام : (**لعامر**)

عـامر قـم بنـا نصـلّ فرضنـا

(**يلتفت للنسوة**)

وقمـنَ أنـتنّ فهيئـن الوضـوء

وقمـن صلـين جميعًـا خلفنـا

ناهية : ويحك هل على النساء مفترض ؟

لا نعرف الصلاة هـل تريدنـا مثـل الرجـال للصـلاة ننهـض ؟

حسـب الفتـاة عندنـا اسـتقامةً بـأن تصـوم الشـهر إذ ترمـض

عامر : حتى الرجـال بعضهـم يصلـي والأكـثر الأكـثر مـن تخلّـى !

وكنـت فيمـا مـرّ مـن أيـامي أخشى من الخمس على أنعامي

فإن غضبت مـرة على جمـل رميتـه بركعتيـن فاحتمـلْ !

حتى علمتُ بعد ذاك أنه وهمٌ فأقسمت لأتركنه
ومنذ ذاك ما تركت الخمسا وما رزئت بَكرةً أو عنسا

همام : رباه هل تبلغ دعوة النبي إلى ربي الصين وأقصى المغرب
وتخطئ الدعوة أرض العرب ؟؟

عامر : همام ليس الذنب للأعراب الذنب ذنب قارئي الكتاب
من ساكني الحضر ذوي الألباب إذ لم يبثوا دعوة الوهاب
في البدو أهل الجهل والغلاب وعطّلوا بأوهن الأسباب
وصية النبي والأصحاب

همام : (في أسف وحزن)

شغلتهم قبابهم والقبورُ أن يقوموا بدعوة أو يسيروا
حسبوها في نسكهم كل شيء فعلام الإدلاج والتهجير ؟
كل (شيخ) و(سيد) عنده قبر إليه التيسير والتعسير !
وإليه اللجا وفيه المرجَّى وعليه التكلان وهو المجيرُ
كاشفَ الضرّ إن أُصيبوا بسوءٍ فإليه ابتهالهم والحضور
وإذا ما ابتغَوْا قضاء مرام فإليه قربانهم والنذور
كيف ترجى هداية البدو منهم وهمُ عن سنا الهداية عور ؟
إن حسب البداة أن يستظلوا في حمى دَجلهم وأن يستجيروا
ويكونوا على هواهم نزولا بيديهم شئونهم والأمور
حسب ذلك الخضوع ليُضحُوا سُعداءً وذنبهم مغفور

آه لو هُذّبَ البداةُ لأمسوا وبهم للأنام خير كثير
ولكفوا عن قتل بعضهم البعض وقَطع السبيل وهو كبير
ولساد الأمانُ وانبسط الخير وزال الشقا وعم السرور

* * *

المشهد الخامس

(تشرق الشمس ويقوم عامر يشد جمله وهمام يشد حماره يتهيآن للسفر)

همام : (راكبًا على حماره وعامر يحث جمله)

عامر ما كان حديث البارحة ؟ سوء ختام بعد حسن فاتحة

عامر : أنت الذي شَببتَ بالتذكار نارًا بقلبي يا لها من نار !

همام : كيف انطرحت ساقطًا مغمى عليك ؟!

عامر : كيف هذيت والنسا بين يديك

همام : لا . ما هذيت ...

عامر : وأنا لم أنطرح وإنما قلت لجسميَ استرح !!
أوّاه ! لو لم تكن اليوم معي لكان لي شأن مع الخِبِ الدعي !

همام : يا عامر اتّئدْ وخل الطيشا فقتلك النفس يُمرُّ العيشا
دعها وما اختارت وخذ سواها فأبلغ النفس بها مناها

عامر : همام هبها لك هل تقوى على أن تلزم الصبر على هذا البلا ؟
لا والنبيِّ المصطفى المختار !

همام : ويحك ! لا تحلف بغير الباري
فإنه نوع من الإشراك بخالق الأكوان والأفلاك
وقد نهانا عنه سيد البشر أليس في قول الرسول مزدجر ؟

عامر : أقسمت با لله ورب البيت ورازق الحي ومحيي الميت
لأسقينَّ النغْلَ موتًا أحمرا وأروين من دمائه الثرى
وأفتكنَّ بعده بالفاجره أقذِفها قبلي لدار الآخره !

همام : يا عجبًا تقتلها وترتقب بعد لقاءها بدار المنقلب ؟

عامر : إني أحبها ، ولولا حبها لكان مني الطلاق حسبها
تأبى عليَّ غيرتي عليها تركي سوايَ آويا إليها
يرغم أنفي أن أسومها الردى وبعدها سوف أموت كمدًا !

همام : ألا تخاف غضب الرحمن في قتلك الأنفس بالطغيان ؟

عامر : من ذا يخاف الله بعد اليوما ؟ قد ذهب الناس فخل اللوما
أنت تقول الحلف بالنبي محرّم في شرعه السوي
فانظر إلى الأنام هل تورعوا عنه بنهي المصطفى وامتنعوا ؟
أما تراهم يلهجون بالقسم جهلاً بكل رمة من الرمم ؟
يرون إيلاءً بعبد الله أعظم من إيلائهم بالله

همام : ما أنت والناس ، عليك نفسك فليس من يدخل منهم رمسك
أعزز علي أن أراك عاقلا منور الفكر وتغدو قاتلا

عامر : همام إني شاكر ودادك ونصحك الممحوض واجتهادك
فإن أطقت الكف عن ضلالي فالفضل للنصح النفيس الغالي
وإن تغلّب الشقا عليه فلست إلا من بني غزيّه !

* * *

الفصـــــل الرابـــع

المشهــــد الأول

« همام ـ خارج باب مدينة الشحر ساحل حضرموت عائدًا إلى سيوون ـ بعد أن قضى عـامين ببلاد جاوا ـ راكبًا على حماره ومعه دليلـه النجاب حاملاً فوق ظهره رزمة من الكتب في غلاف من الشمع المتين » .

همام : أســرع السـير يـا دليـلْ ! أســرع السـير يـا دليـلْ !
إن بـــي ظمـــأةً لمـــا ءِ بســيوون سلســبيل
بُـلَّ مـني صـدى الجـوى واشـف مـن جـوفي الغليـل
ليت شعري ـ وكـادت النفـ ـس مـن يأسـها تسـيل
ومضـت أربــعٌ طــوالٌ ـ وعمـرُ النـوى طويـل ـ
في انتظـاري ـــ والانتظـا ر لأهـل الهـوى قتـول
أتـرى الوصـل لي متـا ح أم الوصـل مسـتحيل ؟!
أئـذا مـا دنـوتُ ميـلا تبـاعدتْ ألـفُ ميـل ؟!
قسمًا بـالحبيب ! ـــ أستغـ ـفر اللّـه ! ـــ بـالجليل
لا أرى الوصـلَ ممكنًـا أو أرى وجـه الجميـل
وأراه بعـــين رأســـي بـلا حـائل يحـول !
وأحـسّ اليمـين في فرعـه مـرة تجـول !

ضاق صدري ، وعيل صبـــري وضلتْ بي السبل !!
وتناهى بيَ الجوى وبرى جسميَ النحول
وتداعت أضالعي من نشيج ومن عويل
واستحالت قريحتي من ذكاء إلى ذهول
أتهادى كشاربٍ أوْهنتْ ساقَه الشَّمول !
جاحمٌ في جوانحي يتلظى بلا فتيل
كلما قلتُ : ذاب قلبي وغالتْه منه غول
رجّ صدري خفوقُه فتوقعْتُ أن يميل !!
فحنانيك لا تَلُم ! أو فلُمْ أيها العذول
ليت شعري هل لي إلى ما تمنّيتُه وصول ؟
فأمانيّ أوشكتْ أن تموت من الذُّبول
أبحَقلي وحدي أنا الجدب والخصب في الحقول ؟!
أسرع السير يا دليل أسرع السير يا دليل !

النجاب : يا أخا الحضر هل ترى رجلاً سيره ثقيل ؟
لست أحتاج أن تقول : أسرع السير يا دليل
لي من النفس سائقٌ ينهب الحزْنَ والسهول
أختشي أن يفوتني « نصر » نجّابُ (باعقيل)
(يصمت قليلا ثم يقول)
أين نصرٌ مني ؟ وأين من المضمر الهزيل ؟
أنا سَيْري منظم لا بطيء ولا عَجول
وهو يشتدُّ في الذّميل فيعتاقه الذميل

أنـــا غـــول القفـــار وابــــــ ـــــنُ الديـــاميم والهجـــول
لا أبـــــالي إذا مشـــــيْتُ أذى الشـــمس والوحـــول

همام : مـا لتجارنـا عبـاديد شـتى يتبـارَوْن بغضـة وحقـودا
كـثروا عـدة وقلّـوا غَنـاءً وأضـاعوا بالافـتراق الجهـودا
وغـدَوْا كـلٌّ واحـد بـبريد مـا لهم لا يوحـدون الـبريدا ؟
فيطيقـوا إرسـاله كـل أسبو ع ويجروا بـه نظامًـا سـديدا
إن في طوفهـم لـو اتفقـوا أن ينشئوا السفن في البحار عديـدا
وبها يستغنون عن سُفن لأجـ ـنب يصليهم العذاب الشـديدا
ولقد كان للحضارم في البحـ ـر سفين أيام كـانوا أسـودا
جاريات من الخليـج لبحر الـ ـهند حتى (أندونيسيا) لتعودا
داؤنـا أننـا نخيـب جماعـات وقـد نـدرك النجـاح فـرودا
أسرع السـير يـا دليـل ! أسرع السير يا دليـل !
واصـل السير لا مبيـت ـ إذا شئت ـ أو مقيـل

النجاب (**متهكمًا**) :

أسـرع السـير يـا دليـل أســرع السـير يا دليل
هـل ترانـي طيـارةً هـل ترانـي أُوتومبيل ؟؟

(يشير بيده إلى طريق السيارات التي بدئ بإصلاحها بحضرموت بين الساحل والداخل حيث يرى العمال يشتغلون بتعبيدها)

دونـك انظـر طريقـه ! فتنهَّـى عمـا قليـل

همام : ليتـه قـد مشـى فـأو صلني الليلـة (السحـيل)[1]

---

(١) الجانب الغربي من سيوون .

النجاب : لا رعى الله عهده إنه عهد عزرئيل
لا تقدره يا إلهي وعسّر له السبيل !
وإذا تمّ فابْلُه بأذى البدو والقبيل !
وإذا ما مشى فلا فارق الوحل والسيول !

همام : قل لي لأية علة أبغضت خلْقًا من حديد ؟
ماذا جناه عليك حتى خلته الخصم العنيد ؟

النجاب : هو قاطع رزقي القليل غدًا وأرزاق العديد
من كل جمَّال وحمّار وَمَّاش بالبريد
أتريدني كالخضر إذ خالوه مفتاح السعود ؟
وبشير آمال النهوض وفجر أيام الصعود
تَعِسوا وخاب رجاؤهم وتعثرت بهم الجدود !!

همام : (لنفسه)
فهِمَ الفتى البدويُّ ما لم يفهم النِّكْس الرشيد
(ثم للنجاب)
حُيِّيتَ من فطِن فدا وُك كل ذي ذهن بليد
ما قلتَه كاف ليُمْـقَت ما يضر ولا يُفيد
ووراء ذاك سوام أبرصَ تنفث السم المبيد
سُلُّ الممالك والشعوب وهيضة العصر الجديد
من كل لص قاتل للمال والخلق الحميد
لكن ظلم الناس بعضهم لبعضهم عتيد !
ليعيش فرد واحد لا بأس من شعب يبيد !!
ولسوف يجنون الندامة منه والأسف الشديد !

المشهـــد الثانـــي

« منبسـط مـن الأرض فسيح يـرى في آخـره مـن جـانب الوادي مدينة « سيوون » على بعد بحيث لا يتبين النـاظر إليهـا إلا بياض منائرها وأبنيتها العالية محفوفة بهالة عظيمة من خضرة النخيل المحيطة بها من نواحيها » .

همام :

أهــــذه ســــيوون أم جنـة عـدنٍ أزلفـت للمتّقـين
للّــــــه مـا أجملهـــا مَنظرهـا الزاهـي يسر النـاظرين
تحسـبها ــ مـن بُعْــدٍ ــ حديقةٌ خضراءَ تسقى من معين
قــد نـثرت في تُربهـــا جنـابذُ اللؤلـؤ والـدرُّ الثمــين !
تفــــوح في أرجائهــــا روائـح الـورد وَعـرف اليـاسمين
يحنـــو عليهــا جبَـــلٌ كما تضمُّ طفلها الأمُّ الحنـون !
تضـــرب في أجوائهـــا منـائرٌ تخفـــى مـــرارًا وتبـــين
كأنهــــا أعمــــــدةٌ قامت عليهن السماوات المتـون
تجعلهــا الرِّيـــاح في تَلعابهـــا أهدافهـــا إذ ينـــبرين
أو كقـــرون حـــامل الـــ أرض على قرنيهِ فيمـا يزعمـون
أثقلــــه آثامهـــــا فمرّقتْ من جوفها تلك القرون
قِبابهـــا زاهيـــــــةٌ لو لم يكن حرمها أسمــح ديـن

هـدّم بعضها (بنو الـــ ـتوحيد) فيما قد خلا من السنين
فهـي تـرى كأنهـا بيض نعام أجفلت من صائدين
ريعت فداسـت بعضـه فهو على الأرض فليقٌ وطحين

* * *

لئـن يكـن منظرهـا وحسنها الزاهي متاعَ المبصرين
فـإن في مَخْبرهـا خـير متـاع لقلـوب النـازلين
تفـرّدَت حِسـانها بالظرف واللين إلى خُلـق متين
ورقـةٍ كأنّهـا نسيب (عبـاس) أرقته اللحون
كأنّمـا أنـت إذا جُزتَ بها تخطر ما بين الغصون
إيـاك مـن لحاظهـا إياك أن تصرع من سحر الجفون

يتنهـد

كـأن (حسنًا) أفرغـت علـى رباهـا مـن جمالها المُبـين
نضـارَة كخَدّهـا تَعُبُّ حتى ترتـوى فيهـا العيـون
ورقّـة في جوِّهـا كما تندى خَجلاً منهـا الجبين
في مائهـا حـلاوةٌ من ريق حسن ما خمور الأندرين؟
وفي محيّـا شمسـها ملاحةٌ من ذلك الوجه الحسـين
وفي قـدود نخلهـا من قـد حُسْنٍ هيفٌ بـه تزيـن
صباحهـا الفضـة قـد سالت على زمرُّدٍ مـن الغصـون
وذهـبٌ أصيلهـا يبتعث الأنس ويهتاج الشـجون
مـن نحرهـا وثغرهـا ووجنتيهـا سرقا تلك الفتـون
وليلهـا مُعَنْـبر كفرعها في عَرْفه وفي الدُّجـون

مدينـــة شـــبيهها في حضرموت وسواها لا يكـون

(يتــأوه)

لـولا توانــى أهلهــا لقلـت هـذه جـزاء العـاملين

ليـس لديهـم عمـــل إلا قضاء الوقت في لهـوٍ مشين

يشــقون في غربتهـــم بالجمع للمال وهـم مقتصـدون

حتـى إذا مــا وصلـوا إلى بلادهـم إذا هـم يسـرفون

كـــأنهم قيـــاصِرٌ يُبَــدِّدون المــال لا يكــترثون

ولا يفكّـــــرون في خدمتها بـالنزر ممـا يجمعـون

ولا يزالــــون في غربتهـم صناعـة أو يحْذِقـون

لينفعـوا أوطـــانهم بهـا إذا عـادوا إليهـا راجعـين

* * *

المشهـد الثالـث

(همـام في مكتبـه وعنـده صديقـه محمـد يـزوره زيـارة خصوصية بمناسبة قرب زواج همام)

همام : محمـــدُ

محمد : لبيـــك !

همام : مــــاذا ورا ءك مــن خـــبرٍ ؟

محمد : ليس عنـدي خـبرْ

سوى أن قلبيَ مستبشر بنيل المنى وبلوغ الوطرْ
وأنك سوف ترى من تُحِب قريبًا وينزاح عنك الكدر

همام : أخي أنا في مِرْية بعد في لقاء حبيب فؤادي الأغر
فقد درجت في انتظاري السنو ن وما بُلَّ من ظمأي المستعر
إذا وعدوني جُمادَى اللقا ء تلاشت جُماداهُم في صفر

محمد : همامُ زمان المطال انقضى وهذا أوانُ الوصال ابتدر
أتغري بقلبك بَرْح الشكو ك والوصلُ بعد غدٍ منتظر ؟
وهذي بيوتك قد زُيّنت وأهلوك في نَشَوات الحَبَر
وأكدتُ أمس على المطربيـ ـن - على رغم أنف الذي قد خطر -
بأن يحضُرونا مساء الزفاف وصبحَ الدخول وليل السمر

همام : سلمت وهل رضي المطربو ن بذاك ؟
محمد : رضوا بعد طول النظر
خشُوا المانعين لهم أولا فداويت بالمال ذاك الحذر
ومَنْعُهم الناس أن يطربوا كما يطربون . دليل البطر
وليس بذاك لهم حجة سوى كبريائهمُ والأشر
همام : محمد ! لا أبتغي المطربين على أنني لك ممن شكر
لئلا يقال : لحظّ هوا ه دعا للمساواة بين البشر
وإن سروريَ بالوصل لا بمن نَقَر الدّف أو من زمر
ولكن سيزدان بالمطربين زواجك ! هلاّ به تفتكر !!

صديقي إلى مَ تحامَ الغرام ؟ إلى مَ فؤادك مثل الحجر ؟
إلى مَ أراك وحيد الظلام وحيد المقيل ، وحيد البُكر ؟

محمد : همام رويدك !

« يبتدره البكاء فيعوقه عن إتمام كلمته » .

همام : (لنفسه) ويلاه ما لـ صديقيَ أدمعه تبتدر ..؟
أشق عليه كلامي ؟
(ثم لمحمد) محمد زلّت لساني ألا تغتفر ؟

محمد : (لنفسه)
إلـهي أبحتُ بسر الهوى وكنت على كتمه أصطبر ؟

ثم لهمام : صديقي أتحسب أنك سؤ تَ فؤادي ودأبك لي أن تسر
أمثلك يجرحني قوله ؟ فتلك لعمري إحدى الكبر
ويا ابن الأكارم ماذا جنيتَ حتى تنصلَ أو تعتذر ؟
همام كتمتك جُهدي الهوى ولكن أبى الحب أن يستتر
همام أتعهد مني البكاء همام أتعرف فيَّ الخور ؟!
وكنت ألومك فيما مضى فيا ليتني كنت فيمن عذر !
وأعجب كيف تصول الظبا ءُ على الأسد؟ حتى رماني القدر!

همام : محمد ! لا تحبسنَّ الدموع ودعها على رسلها تنهمر !
فإن القلوب إذا أجدبتْ بحزنٍ فإن الدموعَ المطرْ !
وقل لصديقك أيُّ الظبا ء رماك وصرّح له بالخبر
فما في الصبابة عار على فتًى طاهر الذيل عفِّ الأزُر

محمد : (يكفكف من دموعه)

همام أتذكر « علوية » نصيرتنا في الجهاد العسِرْ ؟
سليلة طه ، فتاة الحجى ، مِثالَ الكمال مثال الطهُر
أتتنى يومًا على حالةٍ تُذيب القلوب وتجري العَبَر
محمد ! هذا أوانُ الغياث وهذا أوانُ تلافي الخطَر
مضتْ ليلتان وما عندنا من القوت شيءٌ به نعتصر
وأختي غارقةٌ في السَّقا م وإني لأحسبها تحتضر
وزوجةُ عميَ في طَلْقها تعاني المتاعب والوقت قر
وعميَ سافر منذ شهو رِ فلا عاش مضطرُّه للسفر
وكان لدينا بحانوته يعيشُ ويتجر فيمن تَجَر
فشنّع إخوانه بل عِداه عليه ، وقالوا : لئيم قذِر
يُدنّس أحسابنا إذ يرو ح إلى السوق كالناس أو يبتكر!
فما أنهتِ القولَ حتىٰ غدو تُ ويوشِك قلبيَ أن ينفطر
وأذهلها الحزنُ عن موقفي فلم تتحفظْ ولم تستتر
فأبصرتها من خلال الحجا ب كما لاح بين السحاب القمر!
رأيت الجمال ، رأيت الجلال رأيت الهوى والشباب النضر!
وراحت تنثُّ عليَّ الثنآ ءَ بما قد قضيتُ لها من وطر
وقد تركتني سليبَ الفؤا د قليل القرار ، كثير الفِكَر
أردّد أقوالها في الضمير ترنُّ بأذني كصوت الوتَر !
فهأنذا بعدها يا همامُ قصير الرقاد طويل السهر
رحمتُ فأسعفتُ ثم انثنيتُ وفي كبدي مثلُ وخز الإبر !
فلطفك يا رب فيما قضيت فلم يُنْجِ مما قضيتَ الحذر !

همام : يا صديقي عندي إليك عتـاب   واطـراح العتـاب مـني قبيـح
أكـذا تكتـم الحـوادثَ عـنيٰ   وبمـا دونهـا إليـك أبـوح ؟!

محمد : يا خليلي إن كان ساءك فعلي   فاعفُ عني فأنت عـني صفـوح
إن عِـبءِ الهوى علـيّ ثقيـلٌ   وببثّيـكَ سـرَّه أسـتريح
غير أني كتمتـهُ عنـك جهـدي   حـذرًا أن ينـالك التـبريح
ولو أنـي نظـرتُ فيـك لحظـي   يـا خليلـي للـذّ لي التصريـح

همام : خف عن ظهرك العناء لظهري   فاسـلُ عنـه فإنـه مطـروح
إن ما أنت آمـلٌ سوف أغـدو   سـاعيًا في تحقيقـه وأروح
فـدع الهـم إنهـا سوف ترضـا   ك وحسـب المليح زوج مليـح

محمد : (لنفسه)
هـو يـدري بـأن مـا أتوخـا   ه مُحال من الأمـور طروح[1]
فهو يبغي بذاك تخفيـف حزنـي   إنـني بالأسـى إذًا لذبيـح

* * *

(١) بعيــد .

المشهـد الرابـع

(ساحة كبيرة أمـام بيت العروس « حسن » فيمـا بعـد منتصف الليل . يرى هناك جمهور من النساء يصطففـن لزفهـا إلى بيت « همام » تتوسطهن « حسن » عليها غطاء لا تـرى منه . تحيط بهن الوصائف بأيديهن الشموع تتقدمهن القينات المغنيات بأيديهن الدفوف وهن يتغنين بينمـا الجمهـور يتحـرك ويتجه ـ في سير بطيء ـ إلى جهة بيت همام).

القينات : نحـن نـزُف الشمسـا والشـمسُ في ضُحاهـا
فمـا أجـلَّ عُرسـا يغمـره سـناها !

الجمهور : نحـن نـزُف الشمسـا والشـمسُ في ضُحاهـا
فمـا أجـلَّ عُرسـا يغمـره سـناها

القينات : نحـن نـزف الحيـا نحـن نـزف الـمُنى
نحـن نـزف الضّيـا نحـن نـزف السـنا

الجمهور : نحـن نـزف الشمسـا ... ...
... ...

القينات : يـا عُصبـةَ الغوانـي هَلـم للتطريـب !
اشـدون بالأغانـي واهتِفْـن بالنسـيب
واضمُـدْنَ بالأمـاني دوامِـيَ القُلـوب

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : حَيِّيـين بالسـلام هذا الشعاع المسكوب !

وافتَـأن بالأنغـام كـل حزيـن منكـوب

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : روائـح الجنـان تعبق مـن هـذي الـدُّور

كأنمـا المغـاني أمسَتْ مراقص الحـورا!

نحـن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : نحـن نـزف الملَـكْ في صـورة الإنسـانْ

يجلـو ظـلامَ الحلَـكْ ويقشـع الأحـزانْ

فهـل لديكـم فلَـكْ بنـوره يـزدان !؟

الجمهور : نحـن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : يـا قمـر السـماء غُـضِ الجفـونَ أغـضِ

بـالذكر والأسمـاء عـوذتُ بـدر الأرضِ

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

(يقتربون من بيت همام)

القينات : سُـقْنَ إلى همـام جمـالَ هـذا النادي

واحـدونَ للضرغـام لبـاةَ هـذا الـوادي

الجمهور : نحن نزف الشمسا ... ...

... ...

في الطابق العلوي من دار همام حيث تستقبل نسوة الدار النسوة اللاتي زففن « حسنًا » . تنحاز نسوة الدار إلى جهة ، ونسوة الزفاف إلى جهة أخرى والقينات في الوسط يضربن بالدفوف .

القينات : اليُمْن والإقبال والسعد والسعادهْ
للمُعْرِسين فال والفضل والزيادهْ

شاعرة نسوة الزفاف : نحن نزف الحُسنا نحن نزف بلقَيس !

ثم سائرهن : نحن نزف لُبنى فهل لديكم من قيس ؟

شاعرة نسوة الدار مجيبة : همامنا كالمأمون إن زففتم بوران

ثم سائرهن وهكذا في باقي الأبيات إلى آخرها

وإن تكُن بلقيسًا فإنه سليمان !!

نسوة الزفاف : النصر للعروسة !

نسوة الدار : بل هو للعروس !

نسوة الزفاف : للدرَّة النفيسهْ

نسوة الدار : للجوهر النفيس !

نسوة الزفاف : للحُرّةِ المصونة وربة الجمال
للدرَّة المكنونة وواسطة اللآلي !

نسوة الدار : لمفْخَر المدينهْ لسيد الرجال

نسوة الزفاف : الناس يعرفونه بكرَم الخِلال

نسوة الزفاف : النور والشعاعُ ووَهج الشموسِ

والجوهـــر اللمَّـــاع   وحبَــب الكـــؤوس
جميعهـــا أشــياع   لهــذه العـــروس

نسوة الدار : المجـد والكمـــالُ   وكـــرم الأخـــلاقِ
والقـــولُ والفعـــالُ   وحسَـــبُ الأعـــراقِ
جميعهـــــن آلُ   عروســنا الغيــداق !

نسوة الزفاف : نحــن نــزف الحسـنا   نحــن نــزف بلقيــسْ
نحــن نــزف لُبنـــى   فهل لديكم من قيس ؟

نسوة الدار : همامنـــا كالمـــأمون   إن زففتـــم بـــورانْ
وإن تكـــن بلقيسًـــا   فإنـــه ســـليمان

القينات : كـلا العروسين زيْـنْ   للمجــد والعـــلاء
فـلا تفـاضلن بيْـنْ   ســراجي الســماء
أيـن المجــرةُ أيـنْ   كواكــب الجـــوزاء
أصوغهـــنّ لذيـنْ   تـــاجَين بالســـواء

القينات ثم الجميع : يـــا رب باركهمـــا   في ذا الــزواج الســعيد
واجعـــل زمانهمـــا   كأنـــه يـــوم عيـــد
وانفحهمـــا بـــالوُلْد   مثـل دراري النجـــوم
في ظـل عيــش رَغــدْ   وفي صفـــاءٍ يـــدوم

(ستـــار)

الفصـــــل الخامـــس

المشهـــــد الأول

علويــة : (على فراش المرض . حسن تعودها في بيتها) .

علوية : عُدتِني حُسنُ؟ مرحبًا بـك يـا أخــ ــــتُ !
حسن : وقاكِ الإلـــه مـا تحذرينـا !
ما الذي تشتكين ؟ نفســي فـداءٌ لـك مـن كـل علـة تشـتكينا !
علوية : أقصري حُسنُ أن تمنّيْ على ربـكِ ســـوءًا لعلـــه أن يكونـــا
بل سلى الله لي الشفاء عسى أن يقبـلَ الله منـكِ مــا تســألينا
أو ســليه ليَ العــزاء فــإني لا أرى الـداء تـاركي أو أبينـا
حسنُ ! إني أُحِسّ في الصدر نـارًا تتلظّــى كـأنّ فيــه أتونــا !
أشرب الكأس بعد أخرى من الما ء فــلا أرتــوي كمــا ترتوينــا
أحسِـب المـاء يسـتحيل بجـوفي لهبًــا في الحشــى يئــن أنينــا
أنــا لا أسـتطيع أن أدَع المــا ء ، ولا المــاء قـادر أن يُعينـا !
حسن : لا تخافي سوءًا فمثلُكِ في العفّـ ــة والنبـل مـا نمّـى الوالدونـا
تبذلـين المعـروف جهـدك للنـا س ، وتولـين منهـم المسـكينا
وتراعـــين للجـــوار حقوقًــا وتواســين بائسًــا وحزينــا
وتوالـين مـن يحـامي عـن الحـق وإن غــاظ فعلــك الأهلينــا
فإله الــورى سـيرعاكِ ، لن يتـ ــرك يومًا عبــاده المحســنينا

علوية : قدْكِ ؛ هذا جميلُ ظنك في أخـ ـــتكِ ، لا خيّب الإلــه الظنونـا
إن ربـــي بخَلقـــه للطيـــفٌ يتـــولى عبـــاده الصالحينـــا
غـير أن العبـاد بعضهـم يظـــ ـــلم بعضًـا ، عـن ربهـم ساهونا
أنظريني هل بي سوى ظلم أهلي لي وأبنـــاء عمـــي الأقربينـــا ؟
وتصدّيهـم لمـــا ليـس يعنيـــ ـــهم ، وعن واجباتهم يعرضونـا
مات زوجـي ووالـدي فلـم يُبـق لي الدهـــر عـــائلاً أو خدينـــا
غيرَ عمي ـ وأنت تدرينَ ما عمـ ـــي ؟ فقـــيرٌ ينـــاهز الســـتينا
قد وهَى جسمُه ، وخارت قـواه وابتـلاه السـقام حينًـا فحينـا
ألجـــأوه إلى السُّـــفار ليجلـــو عنهـمُ العـــارَ ، هكـذا يزعمونـا
زعمـــوا أن بيعـــه وشـــراه يكسوان الأشراف في القطر هونـا
ثم إنـي مكثتُ في عصمـة الأيـ ـــم وفي رِقبـة الـزواج سـنينا
لم يجئـني منهـم ليخطُـب ودّي أحـــد غـــير فتيـــة عاجزينـــا
وأبـــي عـــالم وجـدّيَ حِـــبرٌ وأصــــولي أئمـــــة متقونـــــ
ولعـــل المـــرآة تصـــدق عـــني إن وجهي ما كان في الحسن دو

حسن : بـل تعـالى الـذي بـراكِ ، وحـلاّ كِ جمـــالاً يحـــيِّر الناظرينـــا !
ســـطعت أنـــوار النبـــوّة فيـــه فاســتحالت مباهجًـــا وفتونـــا !

علوية : وأتـاني محمـد وهـو مـن بيـتٍ حسـيب أصـلاً كمـا تعلمينـــا
رجـــل يمـــلأ الصـــدور كمـــالاً وخـــلالاً كمـــا يسـر العيونـــا !
كـان لي كلمـــا تضـــايق حـــالي ســـاعدًا قبـــل خطبـــتي ومعينـــا
وهو كفئي وكـفء أفضـل مـني حســـبًا أو فضيلـــــة أو دينـــا
فـــأتوْا يزجرونـــني عنـــه حينـــا ويســـومونني التهـــدُّدَ حينـــا
مـــا رأوْا لي من قبـــل ذلك دارًا فأتـــوْا بعـــد ذاك يستبقونـــا

ما ثناهم عن خطبتي غـير فقـري   ليـس عنـدي ملمـال مـا ينشـدونا
ذهبــوا لابنـــة الغـــني وإن لم   يـك مـن بيتهـم وإن كـان دونـا
وانــبروْا يمنعوننـا مـن سـواهم   فلمـــن ويْحَنـا إذًا يتركونـــا ؟
فدعيني يا حسن أبكي مصـابي !   بـمَ أبكـي وقـد أرقـتُ الشـئونا ؟
رب ! كن لي وللتعيسات مثلي   ليـس بـين الأنـام مـن ينصفونـا

(لا تتمالك حسن عن البكاء فتنهمر الدموع من عينيها)

علوية : مِــمّ تبكـين حَسنُ ؟

حسن : مـن أجـل بلـوا كِ فـؤادي أحسبـه مطعونـــا !
تب ذا العيش! لا هوى ليَ في العيـ ـــش إذا لم تحظَيْ بمن تعشـقينا

علوية : أقصري حسن! بـل يظـل همـام بـك في غبطــة بهـا تسـعدينا

حسن : نحـن نحـيي وأنتمـا ؟

علوية : فوقنبـا اللّـــــ ـــه سيأسـو جراحنـا ويلينـا
فوقنـا اللّـــه ..

حسن : فوقنـا أيضًـا اللـــ ـــه سيأسـو جراحنـا ويلينـا

* * *

المشهـــد الثانـــي

(حسن في غرفتها . همام داخل إليها) .

حسن : حبيبـــي ؟
همام : أجـــل مُنيـــتي !
حسن : أمـــا لـــكَ في قبلـــة ؟
تعـــال إلى جـــانبي أمـــا لـــكَ في ضمـــةٍ !
همام : (يهوى إليها)
بلـــى يـــا حيـــاةَ الفـــؤا د ، ولبيـــكِ يـــا مهجـــتي !
هبيـــني لمـــاكِ هبيـــنيَ أطفـــئ بـــه غلـــتي !
هلمـــي نطُـــف بالحيـــا ة كـــالنحل بـــالزهرة !
فمـــا في المنـــى مثـــل قبـــ ـــلة الـــزوج للزوجـــة !
نـــال بهـــا نعمـــة وحســـبكِ مـــن نعمـــةِ
ونجـــني بهـــا لـــذّة ونـــاهيكِ مـــن لـــذّةِ
وهـــل كنعيـــم يجـــيء مـــن ا لله بالرحمـــة ؟!
حسن : حبيـــبي ! أمـــا لـــك عـــن هـــوى الشعْر مـــن توبـــة ؟!
أبـــي أنـــا وحـــدي نسيـــ ـــبُكَ أم بـــي وبالنســـوة ؟
أرى نَـــبرات العُمـــو م تعصِـــف بـــالوحدة
همام : حبيبـــة قلـــبي ! أقِلّـــي علـــيَّ مـــن الغـــيرةِ
هلـــمَّ ادخلـــي للفـــؤاد وافضِـــي إلى الحبّـــة !
فهـــل تجديـــنَ بهـــا لغـــيركِ مـــن عُلْقـــة ؟

حسن : كذا فلتكن ليَ في ... حياتي وفي موتتي

فما في حياتي خشيتُ ... بل بعدها خشيتي !

حبيبي اغتنم ساعة ... من الصفو والبهجة !

فقد لا تطول حيا ... تي ، وتقصر بي مدّتي !

همام : دعيْ عنكِ هذا ، وقو ... لي سوى هذه الجُملةِ

بربكِ لا تذكري ... لنا شبح الفُرقة !

فلم نسترح بعد من ... متاعبها الجمّة

ولم نقْضِ بعض اللُّبا ... نةِ من هذه اللُّقيَةِ

حبيبيَ لا تَلْحِني ... واشفِق على عَبرتي !

حسن : (تبكي) أحسُّ كأن الحِما ... مَ منّي على خُطوة !

ويهمس لي خاطري ... بأني على رحلة !

همام : دعي عنكِ هذي الوسا ... وسَ ، جسمُكِ في صحة

ووجهكِ هذا الجميـ ... ـل ينبُع بالنّضرة

وسوف تجوزين عُمـ ... ـرَ جدّكِ والجدّة

حسن : سَلِمْتَ حبيبيَ لي !

همام : ... ولي أنتِ يا بُنيْتي !

حسن : لقد زال عنّي الذي ... شعرت من الخيفة

وذابتْ همومِيَ مِنْـ ... ـك في كوثر الجنّة

همام : فديتُك ! حُسْنٌ ستبقى ... ببيتيَ كالشمعة !

وتأذنُ لي بالرّحيل ... لأمّ القرى مكّةِ

وتدعو لي الله أن ... يُقصّرَ من غيبتي

كما تترجّاه أن ... يحقّقَ لي طِلبتي

حسن : أحجًّا تُريد ؟

همام : أجل   وشيئًا من القُربة

لأسعى هناك لتزويـ   ـج خلّيَ من خلّتي

محمدُ جِلْفُ الفراش   ينوءُ من العلّة

أضرَّ به اليأس في   هواه لِعَلْويَّة

وأخشى عليه المنيّـ   ـة من هذه الصدمة

وأخبرني أنه   يمتُّ إلى العِترةِ

وأنَّ بأم القُرى   معالمَ ذي النِسبة

فقد جاء منها أبو   هُ إلى هذه البلدة

وفتّشَ في النسوة الـ   ـشرائف عن زوجة

فقالوا له : لانتما   ئك في بيتنا أثْبتِ

فثارتْ به غضبةٌ   وبورك في الغضبة !

ومالت به عِزّةٌ   وبورك في العزة !

وقال إذا لم يكُنْ   لديّ سوى نِسْبَتي

فلا بارك الله في   خلالي ولا همّتي !!

وزَوجه ذو الجلا   ل من أمه البرةِ

فعاش سعيد الفؤا   د بها هانئَ العُشرة

كذا عن أبي أمِّه   حكى مُجمل القصة

حسن : همام ! بيُمن الإلـ   ـه وفي الحفظ والعصمة !

يرافقك الله في   خُطَى هذه السَّفرة

وإني لمسرورةٌ   برعيك للصُّحبة

ومَنْ كمحمدَ في   ولائك والذمةِ !

بحبّكَ عطفي عليه وحُبّي لِعلْويَة

ألم يسعيا قبلُ في دخولك في عصمتي ؟

ألم يبذلا الجُهد في هنائكَ أو غبطتي

وقد عدتُها أمسِ وهي تَقَعْقَعُ بالزفرة !

بِنَفْسٍ تريد الحياة على جسدٍ ميّتِ !

تنوح على نفسها وتزخر بالحسرة !!

وقد أنفدَت دمعها فتبكي بلا دُمْعة !

رثيت لها يا همام ! وخفْتُ على خلتي

لأني أراها تُشير إلى الموت من خُفْيَة !

فمن أجلها يا هُمام شُكوكيَ في صحتي

وإحساسُ قلبي بأني قريب من النُّقْلة

ولكن لعلّ الإله يكشف من محنتي

سأمضي لتبشيرها وتفريجها بالّتي

لعلّ بها أن تكفَّ مِن عَلَن اللوعةِ !

* * *

المشهـــــد الثالـــث

(محمـد على فـراش المـرض . ليـس عنـده سـوى أمـه العجوز تعلله من حين إلى حين وتدخل عليه الخـادم بمكتـوب فيفضـه بيد مرتعشة فإذا هو من حبيبته علوية وإذا فيه) :

يا حبيبي ! مـني عليك سلامٌ وسلام الرحمن فوق سـلامي
يـا حبيـبي إن المنيَّـة جـامٌ كلنـا شـاربٌ بـذاك الجـام
والسعيد الذي يموت سليمَ الـ ـقلبِ عَفَّ الرداء من كـل ذام
فمتـى جـاءكَ النَّعِـيُّ بموتـي فـترحم علـى شـهيد الغـرام !
أنا في النزع يـا حبيبي فصـبرًا لا تَضعضَـع لحـادث الأيـام
ووداعًا! إلى اللقاء! على الكو ثرا في الخلد! في جوار السـلام!
إن تحلْ بيننا الحيـاةُ ففـي الخلْـ ـدِ سنحظى بلقيـةٍ ووئـام
سيرى الحـائلونَ دون الحبيبَـ ـين جزآء الإلـه ذي الانتقـام

علويَّة

محمد : **(يتقلب علـى الفـراش ذات اليمـين وذات اليسـار بجهـد ومشقة)**

هي في النزع! آهِ ما أعظم الخطـ ـب وأقسى على فؤادي الدامـي!
هي في النزع! ربِّ هَون عليهـا! حسـبها مـا رأتْ مـن الآلام!
منعوهـا الحيـاة ظلمًـا فـأودَوْا بحيـاةٍ بريئـةِ الأحـلام
رب! لاخير في الحيـاة! فألحِقْـ ـني بها واكفِـني عنـاء السَّقام
هي روح الوجود مني وما يُصْـ ـنعُ بعد الأرواح بالأجسـام ؟

أكذا نترك الوجود ولم نحـ ـظَ بوصل، ولم نفز بمرام ؟!
أكذا يُرفع البساط وما دا رَتْ على العاشقين كأس مدام ؟

(يحاول أن ينحرف إلى جنبه فلا يستطيع من الضعف والإعياء)

رب ماذا أحِسُّ ؟ هذا فتور عجَبٌ في مفاصلي وعظامي !
خار جسمي فما أطيق حراكًا! وتناهت بُرودة الأقدام
ما لرأسي أضحى عليَّ ثقيلاً وجفوني يُغْريـنَني بالمنام !
ويدي لا تطيق حمل سِواكي ! ولساني تعثرت بالكلام !
وفؤادي دقاته تتوالى علَّ هذا نذيرُ قرب الحِمام

(يتذكر صديقه همامًا)

أين ولّى همامُ ؟ يا ليته عنـ ـدي أراه في مُنتهى أيامي !!
نضر الله وجهه من صديق مخلص لي على مدى الأعوام
كم هداني من الضلال، وكم عبّـ ـد سُبْل الحياة من قدّامي
أمّ صوبَ الحجاز في لفحة الصيـ ـف حريصًا على قضاء مرامي
ليس يدري أني بمدْرَجَة المو تِ وأني على شفير الرِّجام
ومضى غيرَ عالم أن حُسنًا مُنِيَت بعده بحُمَّى لِزَام
ليت شعري إن جاء نعيي همامًا ثم ماذا تكون حال همام ؟
أو أصيبت - لا قدر الله - حسنٌ فهي أدهى فجائع الأيامِ !
وهو في غُربةٍ وليس لديه من يهدّي فؤاده المترامي !
سُنَّ يا رب بالشِّفاء عليها لا تذَرْها رَمِيَّةً للسهام

* * *

إن مِن خلفها فتًى ينصر الحق جهارًا وعن هداك يحامي

شعَّ من هديه على القُطْر نور فـإذا مـات عـاد للإظـلام
واستعاد الجمودُ سلطانه الضخـ ـمَ ، وعـزَّت سواعد الأوهـام
هي سُلوانه الوحيد من الدنـ ـيا إذا ضاق بـالخطوب العظام
عَوْنُـه إن جنـى الجهـاد عليـه وأراه تنكُّـر الأقـوام

(يمسك بيديه على أضلاعه)

يا فؤادي دنـا الخـلاص! فصـبرًا سوف تسلو هذي الجراح الدوامي!
وستلقى الحبيب في ربـوة الخلـ ـد يحييـك ثغـره بابتسـام !
وسـأغدو إلى الإلـه فيعفـو عـن ذنوبـي وسـالف الآثـام
وسأشـكو إليـه مـن رَزَأونـي ـ في ربيع الحياة ـ في أحلامـي
وأراقوا دمي البريء ، وضحَّوْا بحبيـبي في مذبـح الأوهـام !
تخـذوا الديـن جُنـةً يتوقَّـوْ ن بها في الورى سهام الملام
فسـيدرون أنـني عَلَـويّ تنتهـي نسـبتي لخـير الأنـام
غـير أن الحِمـام أهـون عنـدي مـن فخـاري بـالجد والأعمـام
وادِّعائي بـه علـى النـاس فضـلاً يتقاضـاهُـمُ رسـوم احـترامي !
عَزَّ دين الإسلام ! قد جعل النـا س سـواء في شـرعه المتسـامي
لم يـدع ميزة لزيـد علـى عمـ ـرو ، ولا حارث علـى هَمَّـام

(يلتفت إلى أمه وهي بجانب فراشه واهية الأركان ترنو إليه في ذهول وتتحادر دموعها ولا تستطيع الكلام من الأسى)

إصـبري يـا أمـاه ! فـا لله أبقـى لـك مـني ومـن جميـع الأنـام !

(يصوب نظره إلى السماء)

رب رفقًا بقلبهـا المتشـظي ! وحنانيك بـالدموع الهوامـي !
كن لها إن أتت ضحىً بطعامي فتنـادي وليـس رب الطعـام !
كن لها إن أتت سـريرى لإيقـا ظي ؛ فـترتد عنه والقلـب دام !

(تنحـدر مـن عينيـه دمعتـان كبيرتـان ويدخـل في دور الاحتضار الأخير)

(بصوت متقطع)

رب! من ذا أرى ؟ ملائكة المو ت ؟ ألا مرحبًا بوفـد السـلام !
رب! إني آمنت أنك أنـت اللّـ ـه رب الجـلال والإكـرام
ونبيـي محمـد سـيد السـا دات طـه إمـام كـل إمـام
كلُّ زادي إليك خـالصُ توحيـ ـدي فَهَب لي يا رب حسن الختام

* * *

المشهـــد الرابــع

همام في مكة بمنزل استأجره قريب من المسجد الحرام . يأتيه موزع البريد ويسلم إليه برقية من عدن . يوقعها همام فيخرج الموزع .

همام : (بيده البرقية لم يفتحها بعد)

برقيــة ! مــا شــأنها قــل لي ؟ هل مات لي أحد مــن الأهــل ؟
إنــي أحــس كــأن حادثــة جللا ستُفجعني علــى مَهْــل
يــا بــرق مــاذا أنــت تحمــل لي إنــي أراك تَنــوء بــالثقل !
قلـــبي يحدثـــني ؛ و لم أره يومــا يحدثنـــى علـــى جهـــل

(يفتح البرقية ويجيل نظره فيها بسرعة)

مــاذا ؟ أماتــوا ؟ أماتــت حُســنٌ ؟ واكبــدي
ربّاه ..! خــذ بيــدي ! ربّاه ..! خذ بيــدي !

(يسقط من مقعده على الأرض مغشيًا عليه . يسمع جاران له من الحجاج هدة سقوطه فيفتحان عليه البــاب حيــث يجدانــه

ملقى فاقد الشعور . يحركه أحدهما ويأتي الآخر بماء ويرشه على وجهه . يفتح عينيه ثم يتحامل على نفسه حتى يجلس) :

يا حسرتي اليوم فارقت الحبيب إلى
غير اللقاء ! وواحزني وواكمدي ؟
أشكو إليك إلهي ما مُنيت به
من الخطوب ولا أشكو إلى أحد !
كأنما أنا لم أخلَقْ لأشهد مِنْ
هذي الحياة سوى البأساء والنكد !
اليوم أسكب دمعي غير منقطع
إن غاض دمعي يمُدُّه دم الكبد !
يا رب لم يبقَ لي في العيش من أرب
فلَقّني راحتي في هذه البلد !

(ينظر مرة ثانية في البرقية)

أماتت إذاً حسنٌ؟ ومات محمد — وماتت على أثر السقام فتاته !
ثلاثة أحبابي بيوم فقدتهم! — فيا لفؤادٍ أُثْخِنت طعناته ؟
يذوب من الشكوى ويدمى من الأسى — وليس إلى غير الإله شكاته
محمدُ يا خير الأخلاء! والذي — صفتْ مثلما تصفو المدام صِفاته
حنانيك لا تبعَد! لمن أنت تاركي؟ — لقاسي زمانٍ أُولعت بي عُداته ؟
ويا ساعِدَ الإصلاح والباسل الذي — به ارتفعت في قطرنا صرخاته

أتمضي و لم نهتِك من الجهل سِــتره   وما انفضَّ عن صرح الجمود حُماته ؟

أتمضي وفي جنبيــك قلــبٌ معطّــش   من الحُب لم تُبْلَـلْ بوصـلٍ لهاتـه ؟

أحين ظفرنــا بانتســـابك واضحًا   تُغِصُّ به حلقَ الحســود شجاته ؟

أحـــين ظفرنا بانتسابـــك واضحًا   تكُفُّ به طـرفَ الحسـود قذاتـه ؟

وكنت على قاب من الوصل هانئًا   تطلّـق عـن غُـرّ المنـى بســماته ؟

وأنتِ فتاةَ النُبـل والطُهـر والحجـى   تغشتك من رَوْح الرضى نفحاتـــه

لضـاعفَ مـن حزنـي فراقـك أنّـــه   فـراقٌ بـــه لاقــتْ حبيـبي وفاتـــه

أراكِ وفـاءً مـــا رأى النــاس مثلـــه   فـــدًى لحبيـــب بالوفـــاء مماتـــه

و لم أنسَـــهُ لمـــا رآكِ مريضــــة   فجاشت به في مشهدي حسراته؟

(تنهمر دموعه)

يقول : كــأني يـا هُمـام سـأنتهي   كأن حِمامي قد أقيمت صلاتـه!

فقلت له: دع عنـكَ وهمـكَ، إنَّ ذا   محيَّـاك نَضْـر لم تَحُـلْ قَسَـمَاته !

فـأصغى لقــولي واطمــأن فــؤاده   وقرّت ـ على سُحر الردى ـ رجفاته

ومـا كنـت أدري أنـي أنـا واهــمٌ   وأن حبيـبي صـــادقٌ كلماتـــه !

(يريـد أحـد الجـارين أن يقيـم همامـا مـن الأرض فيجذبـه صاحبه)

دَعْــه يُرســل دمعــه   من بكى الشجـو اسـتراح
وإذا مـا كَبَـتَ الـــ   ـحُزْنَ في جنبيـه طـاحْ

الجار : ويحـه مـن مُوجَـع   دَمِيَـتْ منـه الجـراح !

صاحبه : مـا عليـه الآن بـأ   س وقـد صـاح ونـاح

همام : حبيبي ! مالي في رثائك مقول   كأن فمي شُكَّت برمحٍ لهاته !
رثاؤك في قلبي يهدّ أضالعي   وتدفع في أحنائها ضرباته
ولا يستطيع الشعر وصفًا لهوله   وتقصر عن تصويره خطواته
على أنه الشعر الذي الشعر دونه   سرت في الورى مسرى الضحى بيّناته
وإن قريضًا أنت مصدر وحيه   لتَسجد غُـزّاه لـه ومناتـه !
يميل بعطف الكون قدسيُّ لحنه   وتعذُب في سمع الدُّنـى نغماته
تَقطَّعُ أعناق البلاغـة دونـه   وتُزْهَى بـه بين الأنام رواتـه
تُغَصُّ به حساده وهـو سائغ   وأقتـلُ مـاء للحسـود فراتـه
ولكنه الخطب الذي الخطب دونه   تلقـاه قلـب لا تلين صَفَاتـه
ولو غيره أضحى به بعض ثقله   لقـامت عليـه في المساء نعاتـه
فها هو ذا قلبي كسيرًا محطمًا   تفيض دمًـا ثَجَّاجَـةً جنباتـه
لمن أطلب العلياء بعدك ؟ إنما   حَدَتني إليها من سناك حُداته !
وأين سبيل المجد بعدك ؟ إنما   بنـور محيـاك انجلـت ظلماتـه
فأنت الذي علّمتَ نفسي ركوبه   ولولاك ما ذلّت لها صهواته !
ولَقنتها حُب الهدى وجهاده   ولولاك ما اجتِيزَت لها عقباته
أتمضي وما جفّتْ رياحين عُرسنا   ومـا برحـت بسّامة زهراته ؟
أتمضي ولما يَشْفِ قلبي أوامه   وما شقّقت أكمامها صبواته ؟
سلام على قَبْر الحبيب ورحمة   وغيث رضى ما تنتهي قطراته

لئن كان أنسي في الحياة لقاؤه فانسي وهمي بعده ذكرياته!!
كأني بالثغر الجميل على فمي ترف به في نشوةٍ قُبُلاته !
كأنّي بالفرع الجميل بمنكبي تداعبني في عَرْفها خصُلاته !
كأنيْ بيمناه تجول بمفرقي فتلثمها في نشوةٍ شعراته !
لئن حالت الأيام بيني وبينه وقُدِّر للشمل الجميع شتاته
ففي جنة المأوى غدًا سوف نلتقي بفضل كريم لا تُحَد هباته
وإن عزاء القلب إيمانه به وقد فارقته في الحياة حياته

(ينهض فجأة)

خذوني خذوني إلى المسجدِ خذوني إلى الحجر الأسود !
خذوني إلى زمزم علها تُبرد من جوفي المُوقَد !
خذوني لأستارِ بيت الإلـه أشُدَّ بها في ابتهالٍ يدي
دعونيَ أذهب إلى خالقي دعونيَ أذهب إلى سيدي !
دعوني أحطْ على بابه ثِقال الدموع وأستنفِد
فإن أحيَ على لُطفه وإن يأتني الموت أُستشْهَد

(يخرج إلى المسجد الحرام يرافقه جاراه . يقصد زمزم فيكرع من مائها يتوضأ ويذهب إلى المطاف يطوف .. ثم يقف تجاه الملتزم ويتعلق بستر البيت :

الحمد لله اطمأنَّ قلبي ! هأنذا بين يَمينَيْ ربي ؟
إن عظُمت مصيبتي وخطبي فالله يرعانيَ وهو حسبي !

* * *

يا رب أنت الواحد القهار وأنت ذو الرحمة والجبّار
تفجّرت من نورك الأنوار وقَصُرت عن كنهك الأفكار

* * *

يا رب لا نقض لما أبرمْتَا ! فَرَضِّني ربّ بما حكمْتَا
لعلني أجهل ما عَلِمْتَا من صالح لي في الذي أقمتا

* * *

يارب ألهمني العزاء الشافي ! واضمِد جروحي منك بالألطاف
وآتِني عزائم الأسلاف فأنت لي الكافي ونعم الكافي

* * *

وأولني مُناي في الدارَيْن و(حُسنًا) اجمع بينها وبيني
في دار خلْد بين جنتَيْن أقْررْ بذاك عينها وعيني

* *

يا رب وارفع (أمّة الإسلام) واقذِفْ بها إلى المقام السامي
حتى تُرى خفّاقة الأعلام على جميع الكون بالسلام

* * *

ووحّد (العُرْب) ، فإن الوحده تحيي لها ماضِيَها وعهدَه
تعيد بعد الاندرَاس مجدَه وا لله لا يُخلف يومًا وعده

* * *

وانظر إلى (الأحقاف) بالرعايةْ وأولِها بفضلك العنايةْ
بالعلم والأخلاق والهدايةْ فَجَلَّ عنها الجهل والعَمَايةْ

* * *

وصل يا رب على المختار خير الأنام سيد الأبرار
وآله وصحبه الأطهار ما طلعت كواكب الأسحار

* * *

هذا وقوفي خاشعًا بين يديك ! وتائبًا من كل آثامي إليك
متّكلا في كل أحوالي عليك لبّيك يا رب الجلال لبّيك !

* * *

(ستار الختام)

للمــؤلف

١ ـ هُمام أو في بلاد الأحقاف
٢ ـ أخناتون ونفرتيتي
٣ ـ سلامة القس
٤ ـ واإسلاماه
٥ ـ قصر الهودج
٦ ـ الفرعون الموعود
٧ ـ شيلوك الجديد
٨ ـ عودة الفردوس
٩ ـ روميو وجوليت (مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل)
١٠ ـ سر الحاكم بأمر الله
١١ ـ ليلة النهر
١٢ ـ السلسلة والغفران
١٣ ـ الثائر الأحمر
١٤ ـ الدكتور حازم
١٥ ـ أبو دلامة (مضحك الخليفة)
١٦ ـ مسمار جحا
١٧ ـ مسرح السياسية
١٨ ـ مأساة وأديب
١٩ ـ سر شهر زاد

٢٠ ـ سيرة شجاع
٢١ ـ شعب الله المختار
٢٢ ـ إمبراطورية في المزاد
٢٣ ـ الدنيا فوضى
٢٤ ـ أوزوريس
٢٥ ـ فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية (محاضرات)
٢٦ ـ دار ابن لقمان
٢٧ ـ قطط وفيران
٢٨ ـ إله إسرائيل
٢٩ ـ هاروت وماروت
٣٠ ـ الزعيم الأوحد
٣١ ـ جلفدان هانم
٣٢ ـ قاب قوسين
٣٣ ـ الفلاح الفصيح
٣٤ ـ ملحمة عمر (١٨ جزءا)
٣٥ ـ حبل الغسيل
٣٦ ـ هكذا لقي الله عمر

رقم الإيداع : ١٠٢٢١ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى : 4 - 1112 - 11 - 977



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه